مخطوطة النسخة عشر

القصفُ الملكيّ

المقصفُ الملكيّ

روايةٌ مهجرية

الدكتور قصي الشيخ عسكر

العراق للمطبوعات

المقصفُ الملكيّ
رواية مهجرية

الدكتور قصي الشيخ عسكر

الطبعة الأولى 2014
القياس: 14 x 21
عدد الصفحات: 124
ISBN 978-9953-574-09-7

نشر وتوزيع
شركـة العـارف للأعمـال ش.م.م.

بيروت – لبنان
00961 1452077
العراق – النجف الأشرف
00964 7801327828
Trl: www.alaref.net

التوزيع في الجزائر والمغرب العربي:
دار الأبحاث للطباعة للنشر والتوزيع
الجزائر – هاتف: 744281 ـ 21 (00213)
البريد الإلكتروني: www.alabhaath@.com

التوزيع في الأردن:
دار المناهج للنشر وللتوزيع
الأردن – هاتف/فاكس 00962 4650624
البريد الإلكتروني: info@daralmanahej.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي من أصحاب الحقوق.

هامّ جدّاً: إن جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي كتّابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر...

المقصف الملكي
قراءة نقديـــة

أ. د. عبد الرضـــا عليّ

توطئـــة

ترتبط قراءة الشعر (بغض النظر عن نوعه) بالنخب الثقافيّة أكثر ممّا ترتبط قراءة الفن السردي بهم. لأنَّ قرّاءة الفنَّ الشعريّ تتطلّبُ قارئاً من ذوي الأقدار المعرفيّة بشروطِ صناعتِه، ولغتهِ الدلاليّةِ التي تكوّنُ نسيجهُ الخاص: فلسفةً، وأفكاراً، ومضامين؛ في حين لا تتطلّب قراءة الفنِّ السرديّ مثلَ هذه المواصفات في مريديهِ وقرّائه، فضلاً عن أنَّ قراءة الشعرِ تشترط (في الأعمِّ الأشملِ): التركيز، والتأمّل، ومعرفة ما وراءَ النصِّ من مسكوتٍ عنه.

لذا، شاعَ عندَ غير العربِ قراءةُ الأعمال السرديّة في محطّات انتظار الحافلات، وعربات المسافرين، و قطارات الأنفاق، وصالات المطارات المكتظة بالمغادرين إلى أصقاع الدنيا ، وغيرها من الأمكنة، لأنَّ قراءة السرديّات (الرواية مثلاً) لا تتطلّب قارئاً حاذقاً من ذوي تلك الأقدار المعرفيّة في التأمل، والتعرّف على خفايا المجازات الدلاليّة للأشياء، إلى جانبِ أنَّ الأعمالَ السرديّةَ تشدُّ القارئ إليها شدّاً، ليتواصلَ مع مجرياتها

من غيرِ كدٍّ ذهنيّ في أحايين كثيرة، رغبةً في التواصلِ مع ما يؤول إليه الحدث، وصولاً لتحقيق المتعة المنشودة في معرفة ما سيأتي من أحداثٍ مستقبليّة، بعكس الشعرِ الذي يتوجب على قارئه أن يشدَّ نفسه إليه شدّاً، سواء أكان ذلكَ في القصائد ذات الاتجاه الرمزيّ، أم في ذات الغموضِ الشفّاف.

وعلى وفق ما تقدّم فإنَّ قرّاءَ فنَّ السرد يزدادونَ أعداداً يوماً بعد آخر (وإنْ لم تكن هذه الزيادة على حسابِ قرّاءة الشعر)، و إنّ الروايةَ تحديداً قد "اغتدت على عهدنا هذا، وقبلَ عهدنا هذا أيضاً، الجنسَ الأدبيّ الأكثر مقروئيّة في العالم"[1]، وإنّ كتّاب هذا الفنّ أكثر حظوة عندَ الناشرين العرب من غيرهم من المبدعين، وإنَّ معارض الكتب الدوليّة تشهدُ إقبالاً على السرديّات أكثر من الإقبال على شراء المجاميع الشعريّة العديدة التي صار يكتبها كلّ من هبَّ ودبَّ من القادرينَ على تحمّل أجور طباعتِها، وإنّ حفلات توقيع إصدارات السرديّات أمست من الفعّاليّات الجميلة التي ينتظرها المثقّفون في تلك المعارض، وأنّ مؤتمرات كتّابها، أو حلقاتهم الدراسيّة باتت أكثر نشاطاً من مؤتمرات غيرِهم من صنّاع الإبداع، وإنّ قسماً (غير قليل) من شعرائنا المعاصرين بدؤوا يخصّصون بعضاً من الزمنِ (الذي أوقفوه سابقاً لصناعة الشعر) لكتابة تجاربهم السرديّة الجديدة، بعدما شعروا أنّ مقولة عصفور من أنّ هذا الزمن هو "**زمن الرواية**" قد تكون صحيحة.

* * *

(1) عبد الملك مرتاض، في نظريّة الرواية، بحثٌ في تقنيّات السرد، 160، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998م.

تعالج رواية قصيّ الشيخ عسكر "المقصف الملكي" موضوعة الإنسان (العراقي) المستلب في المهاجر، أو المنافي الاختياريّة التي عاشَ فيها ردحاً من السنوات العجاف، وتحمّلَ خلالها ما تحمّلَ من عنتِ العيشِ، وضنكه، وما رافقهما من قلقٍ وجوديّ، وخوفٍ دائم من مصير مجهول قد يكونُ ذا علاقات ملتبسة في تكريس واقع مأزومٍ يثلم كبرياء الشخصية، ويخدش عزّتها.

تتلخّص الرواية في أنَّ مثقّفاً عراقيّاً من أبناء مدينة البصرة في جنوبي العراق يقرّرُ مغادرة وطنه كي لا يُشاركَ في الحرب التي شنّتها الدكتاتوريّة الحاكمة في بغداد على أبناء الشعب الكوردي في كردستان العراق في الثلث الأوّل من عقد السبعينيّات من القرن الماضي، متّخذاً من مدينة بيروت محطّته المهجريّة الأولى في الانطلاق إلى المنافي التي يستطيع أن يتنفّسَ فيها هواء الحريّة، جاعلاً من مقصف بيروتي هو "المقصف الملكي" فضاءً مكانيّاً لمعظم أحداثِ هذه الرواية.

ومع أنّ هذه الرواية أفادت من فنَّ السيرة الذاتيّة في تسجيلِ أيّامِ بطلِها، إلّا أنها لم تكن روايةً سيرةٍ بالمفهومِ العام، لأنّها ركّزَت حصراً على أيّامِ بطلها في بيروت، وأهملت ما عداها، وهذا ما جعلها تنأى عن روايات السيرة التي تُعنى بدقائقِ حياةِ البطل وبنائه النفسي، وتكوينه، ومواقفه، وعلاقاته، وفلسفتهِ في الحياة، وغير ذلك من أمور حيويّة.

ما تقدّمه "المقصف الملكي" من سيرةِ بطلها يقعُ في ثلاثةٍ وعشرينَ يوماً من العام 1976م، لكنَّ هذه المذكّرات التي تبدأ في يوم الأربعاء 9/ 1/ 1976م، وتنتهي في يوم السبت 14/ 4 من العامِ نفسهِ تتخللها انقطاعات عديدة، وهذه الانقطاعات هي من المسكوت عنه، أو الحذف المقصود فنيّاً، وقد لجأ إليه قصي

عسكر عامداً ليجعل من قارئه الذكي سارداً آخرَ يكمل المحذوف على وفق زاوية قراءته النفسيّة له، فضلاً عن أنَّ هذا المسكوت عنه يُثير في قارئه أسئلة الإبداع الملحّة التي تبحث عن إجابات لِها.

ومتى ما تمكّن المبدع من جعلِ متلقّيه قادراً على تأويل رؤيا السارد، أو لعبته المتخيّلة، فإنه يكون قد حقّقَ هدفه في جعل متخيّله السردي حمّال أوجهٍ في التعليل، لهذا كان الحذفُ تقنية زمنيّة مقصودة وليست غفلاً عن لحظةٍ من الحدث، وهذا ما قال به بعض النقّاد حين تناولوا مصطلح الحذف في الخطاب السردي[2]، لهذا يمكننا القول باطمئنان: إنّ خلو مذكّرات السارد من أيّام الخميس (مثلاً) طوال أكثر من ثلاثة أشهر من تاريخ المذكّرات لم يكن إغفالاً بريئاً، إنّما كان إغفالاً مقصوداً (عامداً) جرى عن وعيٍ فنّي مع سبق الإصرار والترصّد.

وقد اخترنا ملمحينِ جماليين فقط من ملامح هذه الرواية رأيناهما حريينِ بالتحليل والدراسة النقديّة، تاركين بقيّة الملامح الجماليّة للقارئ النابه، تحفيزاً لذائقته القرائيّة من جانب، واستكمالاً للكشف من جانبٍ ثان، وهذان الملمحان هما:

أولاً: تقنية المكان:

مع أنَّ هذه الرواية قد استثمرت أمكنةً معيّنة في تحريك أحداثها كالمطبعة، وشقة السكن، والجريدة، وبحر بيروت، وبيت صاحبة الحانة، وغيرها من الفضاءات المكانيّة، إلّا أنَّ المكان

(2) يُنظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، 125، بدلالة د.علي المانعي (القصة القصيرة المعاصرة في الخليج العربي) 55، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت 2010م.

الذي تمَّ التركيز عليه في بؤرةِ السردِ كان فضاءَ المقصف، بزبائنه المختلفين(أجناساً وثقافات) ومفرداته المركّبة الصاخبة (من صفقاتِ نخاسةٍ لشراءِ أجسادِ النادلات) وبعوالم المستلبين الذين يشعرون بالرضا المؤقّت فيه، فيؤجّلون جزعهم إلى حينٍ آخر، وما إلى ذلك من أمورٍ أخرى.

إنَّ خصوصيّةَ العملِ السرديِّ الناجحِ تكمنُ في قدرة الساردِ على جعلِ المتلقّي يرى المكانَ من خللِ الحروفِ، ويشمّ رائحة الأرضِ من خلال غبارها المتصاعدِ على الورق، ويشاهد خضرتها السندسيّة من بصيرة الساردِ المتمكّن التي تلوّنُ لوحاتِ المشهدِ المتحرّكِ، فيعيش الأحداثَ وكأنه شاهدٌ على مجرياتها.

وعليه، فإنّ ابتداع صرعةِ التخلّي عن المكان في العمل السردي ضربٌ من العبث، أو تهويمٌ في اللاواقع، لذلك قال باشلار: "إنّ العملَ الأدبيَّ حين يفقد المكان، فهو يفقد خصوصيّته، وبالتالي أصالته"[3]، فالحبكةُ التي تتلخّصُ في كونها أحداثاً ترتبطُ فيما بينها بأزمنةٍ معيّنة لتؤدّي غرض السرد، أو السارد، لن تكون بغير أمكنةٍ ترتبطُ بالأزمنة ولا تنفصلُ عنها، وهو ارتباط يحقّق وظيفة الزمان والمكان في خلق الوهم لدى القارئ من أنّ ما يقرأه قريب من الواقع، أو جزء منه[4].

ولعلّنا لا نغالي إذا ما قلنا: إنّ ما رسمه قصي عسكر من لوحةٍ متحرّكةٍ للحانة أنْ جعلنا نراها من خلال عينيهِ اللمّاحتين في

---

(3) غاستون باشلار "جماليات المكان" ترجمة غالب هلسا، 5-6، ط(2) المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1984م.

(4) يُنظر: د. عدنان خالد "النقد التطبيقي التحليلي"، 82، سلسلة آفاق، بغداد، 1986م.

الوصفِ الدقيق، ومكّننا من الاستماعِ إلى ما كان فيها من صخبٍ وموسيقى وحوار، وفي اللوحةِ الآتية ما يثبت ذلك:

"للمرة الأولى أدخل هذه الحانة.

قد يكون ضجري...

أو مجرد العنوان.. طريق ضيق متفرع من شارع الحمراء وإذا بي أفجأ بهدوء وصخب لطيف شفاف يذوبان معا فاستريح على ضفافهما وقد توقفتُ لحظةً عند إحدى الأغاني. كان الزجاج المعتم يفتح شدقه فيدفع إلى الرصيف أحد الزبائن ويرسل لي أغنية عراقية كادت تشرف على نهايتها أو انتهت.

"المقصف الملكي" لمحت اللافتة المشرئبة نحو السماء الملبدة بغيوم مبهمة الملامح، وحانت مني التفاتةٌ إلى الداخل قبل أن يعود شدق الباب للانطباق من جديد فيحجب عني السمع والرؤية، لتختفيَ من أمام عيني إنارة خافتة، ودكة ووجه فتاة أكاد أميز سحنته السمراء عن بعد، وصفوف تربعت فوقها قنان زاهية الألوان.

لحظتها كانت بقايا الأغنية العراقية تذوب بهدوء وراء الباب، وقد فقدتُ رغبتي في الذهاب إلى مقهى يطل على الساحل كما خطر في ذهني قبل أن أغادر البيت.

ربما مررتُ بالمكان أكثر من مرة وفاتني أن ألتفتَ إليه حتى جذبتني أغنيةٌ سالت مع السراب فدفعني الفضول للانعطاف نحوذلك المقصف الذي رأيته يلوحُ على بعد خطوات مني كنبع صاف يغري العابرين بالوقوف عنده والتلذذ بمائه العذب.

كانت كلمات الأغنية القديمة تغسلُ بعض التعب عن وجهي وتمسحُ من يدي بقايا الحروف التي تدغدغ أصابعي طوال النهار.

الحروف تتناوشني من كل مكان. في المطبعة الحبر الأسود والحروف. الكلمة تلك. السطر هكذا. مئات الكلمات تمر بي فلا أتذكرها. والحوادث كثيرة استوعبها فأنساها. وهناك لحن قريب.. شيء ما يشدني إلى الماضي..أغنية ربما سمعتها عشرات المرات فلم التفت إليها:

عمي يابياع الورد

كل لي الورد بيش

لم لوحَّت لي الأغنية بنهايتها واختفت؟

كيف مرَّت بي في هذا الوقت الملبد بالغيوم؟

أين أذهب إذا ماتغيرت لبنان؟ هل أبالغ في هواجسي؟ الحوادث كثيرة مثل الحروف التي تستوعب أخبار العالم وخواطر الناس. البلد على وشك أن ينفجر. احتقان على الوجوه، وغضب في العيون.وأنا يكاد الفراغ والقلق يأكلاني كأنَّ الأغنية تدعوني للدخول .. تمد إليّ ذراعيها. "المقصف الملكيّ".. واحة أم مقصف. لايهم.. عنوان أثار انتباهي ! أجل... جلست في ركن قصي.تأملتُ كأسي خلال الجوّ المعتم، بعد فترة ربما طالت قليلا تهادت إلى أذنيّ كحداء صحراوي أغنية أوروبية:

Who can take you far away

من وضع حضيري ابن الناصرية المغني الريفي الذي نأنف من سماعه نحن جيل الشباب بصف ديمس روسز؟عندما توقفت الأغنية، أشرتُ بيدي، فتركت صاحبةُ المقصف مكانها عند الدكة، وتوجهت نحوي. تبينتُ أنها سمراء حقا مربوعة تهتز كبطة في مشيتها الرشيقة:

- هل من الممكن - لو سمحتِ - الأغنية الأولى؟

وجهها ينمّ عن دهشة تضيع مع ابتسامتها:

- أية أغنية؟

قلت مُؤكدا:

- الأغنية العراقية "وأردفتُ" ربما كنت مشغولة مع الزبائن فلم تنتبهي إليها!

- آه أغنية بائع الورد!

ذهبت إلى آلة التسجيل، فتهادت موسيقى ما ثم رجعت:

على رأسي حالما تنتهي بعض الأغاني التي طلبها زبون قبلك".

ثانياً: الراوية والتداعي والمناجاة:

راوية "المقصف الملكي" راويةٌ عليمٌ، وليسَ موضوعيّاً، وثمّةَ فرقٌ بين الراوي العليم، والراوي الموضوعي، فالعليمُ يعرفُ كلَّ شيء، لأنّه(في الغالب) يكونُ البطل المحوري الذي يروي أحداثاً معيّنة من سيرتهِ الذاتيّة، كاشفاً عن بعضِ ما يختزنه في ذاكرتِهِ من حركةِ الأحداثِ، وعلاقاتها المتشابكة، وما يحمله من تصوّر كاملٍ عن شخصيّات النصِّ السردي، سواءٌ أكان ذلك في البناءِ النفسيّ، أم البناءِ المعرفي الثقافيّ، ناهيكَ عن علاقات تلك الشخصيّات بمحيطِها الإنسانيّ، وتفاعلها الحركيّ مع مجتمعها المعيش.

وهذا الراوي يتيحُ لنفسهِ التدخّلَ في كلِّ جزئيّات النصِّ، فقد يحذفُ أحداثاً على حساب أخرى، أو يركّز على صراعٍ دراميٍّ دونَ آخر. ومثلُ هذه الحريّة تنأى به عن دائرة الموضوعيّةِ، وتجعله غير محايد.

ومع هذا فالمتلقّي الجاد يرتضي ذلك، ويرغبُ في هذه التقنية، ويفضّلها على تقنية الراوي الموضوعي، لكون الأخير يصف الأحداثَ من الخارجِ، ولا يراعي دواخلَ الشخصيّات، أو عوالم لا وعيها، لكونه يُعنى بالسرد الوصفي أكثر من عنايته بالتحليل، ويكون بذلك أقرب إلى الوثائقيّة منه إلى الفنيّة في بنية العمل الإبداعي.

ومعَ أنَّ هذا الراويةَ قَد تسلّمَ راية الإبلاغ السردي، إلّا أنّه استعان بتقنياتِ :التداعي الحر، والارتجاع، والمناجاة (المونولوج الدرامي) وغيرها، وجعلها تكمّل بعضها بعضاً في تقديم مشاهد اللوحات على نحوٍ من تدفّقٍ صوري، لا يخلو من انسيابيّة جميلة، ممّا يؤكّدُ أنَّ قصي عسكر واحدٌ ممّن يمتلكونَ أدواتِ المتخيّل السردي، وحرفة الكتابة باقتدار متميّز، وهو دليلٌ على أنّ دربته في ممارسة هذا الجنس الأدبي لم تكن قصيرة.

فالراويةُ يتوقّفُ عن الإخبار السردي حينما يبدأ بطلُ الرواية عِمليّة التداعي الحرّ، أو الارتجاع الفنّي، ممّا يجعل المتلقّي ينسى المهيمن الأول مدّة من الزمن، فيعيشُ مع مناجاة البطل النفسيّة، وحواراته الدراميّة التي يجريها مع أعماقه من غير تكلّفٍ في الانتقال من تقنيةٍ إلى ما سواها، مع أنّه يلجأ أحياناً إلى عمليّة التداخل الزمني بما يُشبه الأحلام أو الكوابيس التي تحتاجُ إلى منبّه يوقظها ممّا هي فيه من شطحات، ولن تكون بغير العودة إلى تقنية الوصف السردي، أو الالتجاءِ إلى تقنية الديالوج لمعاودة الاتّصال بالمهيمن (حامل راية الإبلاغ) ثانيةً، كما في النصّ الآتي الذي تتداخل فيه تقنية الراوي العليم بالمناجاة النفسيّة، والتداعي الحر، والديالوج، والوصف على نحوٍ تلقائي:

"غادرت الجريدة قبل الواحدة بدقائق. وقصدت البيت

مباشرة. ارتميت على السرير ولم تكن بي رغبة للطعام.بطالة وموت قادم.خلال دقائق كنت استسلم للنوم. . . .حلمت بالحروف وأشياء أخرى غريبة، في متنزّه ما حيث الأضواء المعتمة الخضراء والمناضد المنتشرة تحت أشجار الليمون نساء جميلات عاريات الظهور يحضرن الحفل. يتخذن مواقعهن على الكراسي وثمة في الممر وجدت نفسي أقف كأنني نادل يلبي طلبات الزبائن فيقع بصري على قامة فارعة القوام نادت بأصبعها السبابة ودعتني نظرة عينيها أن أقدم. .اقتربت منها على ضوء المصابيح الخافتة وحينما وقفت أمام المنضدة ورفعت رأسها إلي اكتشفت أنها لينا الدغيمي!

لم أصب بالدهشة أمام جمالها، وتسريحتها الرائعة التي تحدت بها تسريحة ممثلات السينما في عقدي الخمسينيات والستينيات. قالت لي بصوت رقيق إنها جاءت وفي نفسها البحث عن شاب وسيم سوف تلبي كل رغباته ويسعدها أن تنتظره هنا وما علي إلا أن أناديها حالما يأتي.هو أكثر وسامة من أي شاب آخر، رحت أتطلع إلى الباب من غير أن أعرف أو أعير أية التفاتة للأسماء لكني فوجئت بصاحب المطبعة وهو ينهض من كرسيه ليقول لي إن هناك تلبكا واختلاطا في الحروف يجب أن أعالجه ودس يده في جيبه.سلمني مجموعة من الحروف كانت جميعها تشتبك مع حرف الحاء الذي كان أكبر من الجميع. سلسلة حروف متشابكة. . سألت نفسي هل يقصد الحروف العربية أم الأجنبية؟ وتكاسلت عن العودة.لم أتوجه إلى المطبعة بل ذهبت مباشرة إلى البيت وفي رغبة لأن أغسل الحروف بالماء لعل ذلك يساعدني على فصلها. . وجدتهن بانتظاري ولما يزل حروف الحاء بيدي.صرخت بصوت حاد:

سأفصلكن. سأفصلكن.. انتظرن!

كاد المنزل يغص بهن إذ تفرقن.حاوية الأزبال ممتلئة..حوض الغسيل.. سرير النوم.. الحمام.. المطبخ.. الطباخ الغازي.. حنفية الماء.. بعيدا ينط سيل منها فيشفط حقول الشعيبة ليشخص في المكان شجر سدر ويلتم ثانية يطلع نحو النخيل يقتلعه فينبت مكانه كافور طيب الريح ثم تعود الحروف في الوقت ذاته إلى بيروت. بعد المكالمة الهاتفية تصل إلي رسالة من والدي: أمك مشتاقة إليك. إذا ضاقت بك الحال تعال فكل شيء على مايرام.حروف الرسالة تختلط ببقية الحروف يضيع أثرها ماعليَّ إلا أن أفصل جميع تلك الحروف واعلقها بسلسلة مفاتيح حرف الحاء التي مازالت بيدي لكني لم أفلح.. كلما قبضت على مجموعة وجدت أخرى جديدة تحل محلها لا أعرف من أين تأتي الحروف غير أني تكاسلت فارتميت على السرير وكنت أتقلب في تلك اللحظة على جنبي الأيمن فأجد نفسي وحدي وقد تقحّمني هياج جارف وفحولة غير متناهية لاأشك قط في أنها فحولة كاذبة...تمنيت في تلك اللحظة أن تكون نريمان جنبي أو نوليا. هؤلاء عائلتي. ألم تقل نريمان ابق معنا أفضل لك! هناك امرأة أريد أن أعريها وإن كانت امرأة رجلا مثل لينا. أية منهن لايهم.

فقط أريد أن أثبت فحولتي!"

عالم "المقصف الملكي" عالم يمورُ بمعاناة مثقّف عراقيٍّ مستلب من الباحثين عن الأمان في المَهاجِر والمنافي، ومع أنّه هربَ من بلده كي لا يُشارك في قتال أبناء وطنه، إلّا أن شبح الحرب يلاحقه حتّى في مستقرّه الجديد "بيروت"، فقد كانت نذر اندلاع الحرب الأهليّة على وشك الوقوع في منتصف سنة 1976م،

لكنّ السارد لم يشأ أن يتحدّث عنها، فقد أنهى الرواية دون أن يعلمنا عن خلاص البطل، أو نهايته، وحسناً فعل، فهذا المسكوت عنه جعل كلّ متلقٍّ (من الباحثين عن النهايات) يختار النهاية التي تتناسبُ وزاوية قراءته النفسيّة للرواية، وهي لمحة ذكيّة تدلّ على ما ألمعنا إليه من أنّ قصي الشيخ عسكر كاتبٌ روائيٌّ متمرّس[5]، فضلاً عن كونهِ شاعراً موهوباً، وناقداً حصيفاً، لهذا سيجد القارئ الجاد في هذه الرواية جرأةً في توصيفِ ما يجري في هذه المقاصف الليليّة من امتهانٍ لكرامةِ المرأة العربيّة تحديداً، وما تعانيه بعضهنّ

---

(5) ما يؤكّد تمرّس قصي الشيخ عسكر في هذا الجنس الأدبي من الإبداع آثاره العديدة التي بلغت ثلاثَ عشرةَ روايةً، ومسرحيّة، وهـــي:
* المعبر: رواية، دمشق، 1985م.
* سيرة رجل في التحوّلات الأولى: رواية، 1986م.
* المكتب: رواية، دمشق 1989م.
* المختار: رواية؟ لم أعثر على زمن طباعتها، (أرجح أنّها كتبت العام 1990م).
* شيء ما في المستنقع: رواية، مط، خالد بن الوليد، دمشق، 1991م.
* للحمار ذيلٌ واحد لا ذيلان: رواية، ط1، دار الحضارة الجديدة، بيروت، لبنان، 1992م.
* نهر جاسم: رواية، دار الأضواء، بيروت، 2004م.
* الشمس تقتحم مدينة الثلوج: رواية، (د- ت- م.)
* آخر رحلة للسندباد: رواية، (د- ت - م.)
* الموتى يزحفون: روايات اغترابيّة (د- ت - م.)
* روايات وقصص من الخيال العلمي، ط1، مؤسّسة شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010م.
* وأقبلَ الخريف مبكّراً هذا العام: رواية، ط1، مؤسسة شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2022م.
* الشاعر: مسرحيّات، ط1، مط الغريّ الحديثة في النجف الأشرف، 1973م.

من ضير الزمن وبشاعته، وتسلّط القهر الإنساني بسبب الحاجة إلى لقمة العيش.

ولكنّه من جانبٍ آخر سيحظى بمتعة الإدهاش التي تجذبه لإتمام النصّ، وعدم مغادرته حتّى ينتهي منه، لما فيه من إثارة في الأداء والتوصيل، فضلاً عمّا يمتلكه هذا النصّ من لغةٍ جميلة.

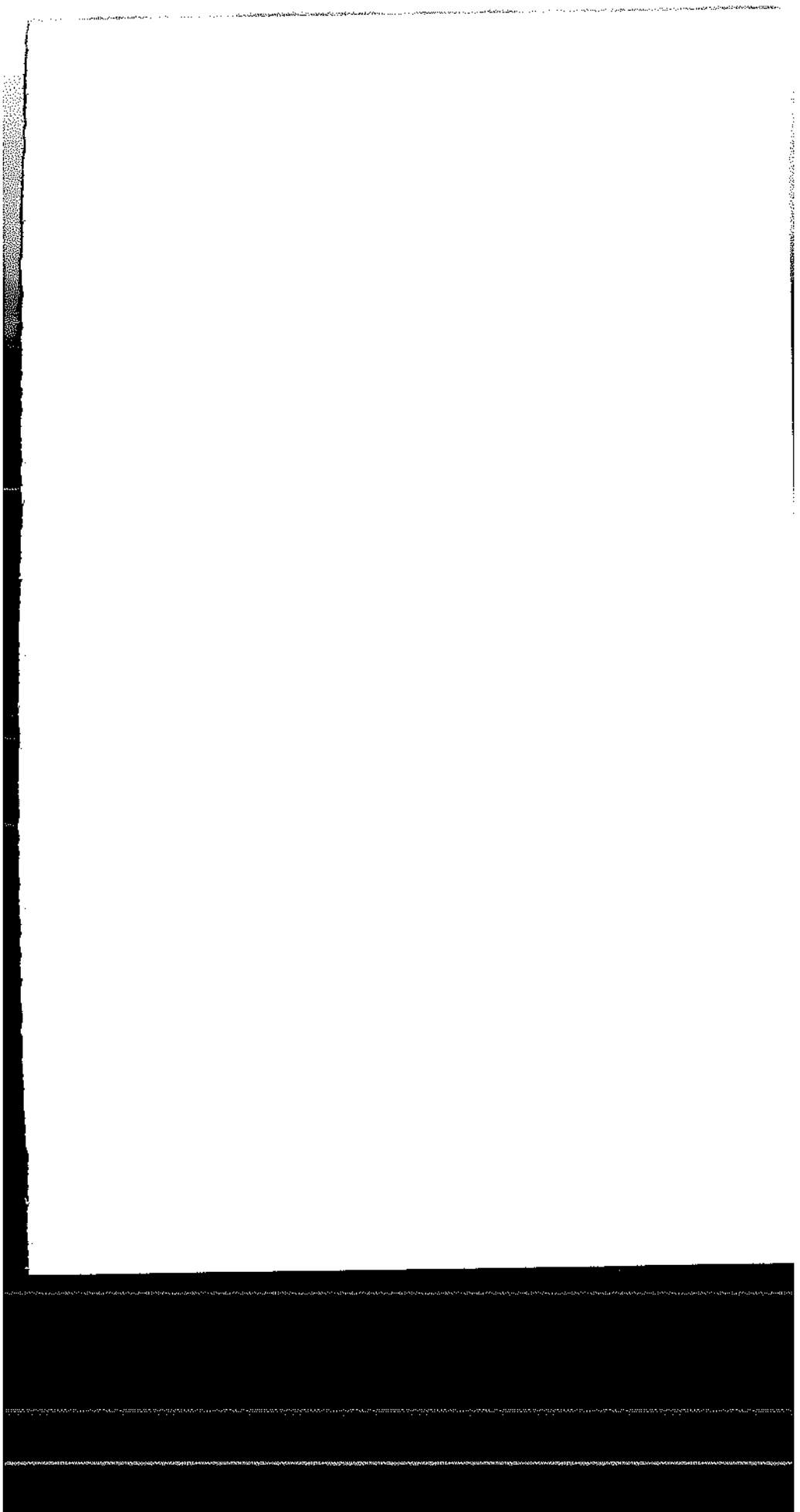

الأربعاء 9/ 1/ 1976

للمرة الأولى أدخل هذه الحانة.

قد يكون ضجري..

أو مجرد العنوان.. طريق ضيق متفرع من شارع الحمراء وإذا بي أفجأ بهدوء وصخب لطيف شفاف يذوبان معا فاستريح على ضفافهما وقد توقفت لحظة عند إحدى الأغاني. كان الزجاج المعتم يفتح شدقه فيدفع إلى الرصيف أحد الزبائن ويرسل لي أغنية عراقية كادت تشرف على نهايتها أو انتهت.

"المقصف الملكي" لمحت اللافتة المشرئبة نحو السماء الملبدة بغيوم مبهمة الملامح، وحانت مني التفاتة إلى الداخل قبل أن يعود شدق الباب للانطباق من جديد فيحجب عني السمع والرؤية، لتختفي من أمام عيني إنارة خافتة.ودكة ووجه فتاة أكاد أميز سحنته السمراء عن بعد، وصفوف تربعت فوقها قنان زاهية الألوان.

لحظتها كانت بقايا الأغنية العراقية تذوب بهدوء وراء الباب، وقد فقدت رغبتي في الذهاب إلى مقهى يطل على الساحل كما خطر في ذهني قبل أن أغادر البيت.

ربما مررت بالمكان أكثر من مرة وفاتني أن ألتفت إليه حتى جذبتني أغنية سالت مع السراب فدفعني الفضول للانعطاف نحوذلك المقصف الذي رأيته يلوح على بعد خطوات مني كنبع صاف يغري العابرين بالوقوف عنده والتلذذ بمائه العذب.

كانت كلمات الأغنية القديمة تغسل بعض التعب عن وجهي وتمسح من يدي بقايا الحروف التي تدغدغ أصابعي طوال النهار. الحروف تتناوشني من كل مكان. في المطبعة الحبر الأسود والحروف. الكلمة تلك. السطر هكذا. مئات الكلمات تمر بي فلا أتذكرها. والحوادث كثيرة استوعبها فأنساها. وهناك لحن قريب.. شيء ما يشدني إلى الماضي.. أغنية ربما سمعتها عشرات المرات فلم التفت إليها:

عمي يابياع الورد

كل لي الورد بيش

لم لوحّت لي الأغنية بنهايتها واختفت؟

كيف مرّت بي في هذا الوقت الملبد بالغيوم؟

أين أذهب إذا ماتغيرت لبنان؟ هل أبالغ في هواجسي؟ الحوادث كثيرة مثل الحروف التي تستوعب أخبار العالم وخواطر الناس. البلد على وشك أن ينفجر. احتقان على الوجوه، وغضب في العيون.وأنا يكاد الفراغ والقلق يأكلاني كأن الأغنية تدعوني للدخول .. تمد إليّ ذراعيها. "المقصف الملكيّ".. واحة أم مقصف. لايهم.. عنوان أثار انتباهي! أجل... جلست في ركن قصي.تأملت كأسي خلال الجوّ المعتم، بعد فترة ربما طالت قليلا تهادت إلى أذنيّ كحداء صحراوي أغنية أوروبية:

Who can take you far away

من وضع حضيري ابن الناصرية المغني الريفي الذي نأنف من سماعه نحن جيل الشباب بصف ديمس روسز؟عندما توقفت الأغنية، أشرت بيدي، فتركت صاحبة المقصف مكانها عند الدكة، وتوجهت نحوي. تبينت أنها سمراء حقا مربوعة تهتز كبطة في مشيتها الرشيقة:

- هل من الممكن - لو سمحت - الأغنية الأولى؟

وجهها ينم عن دهشة تضيع مع ابتسامتها:

- أية أغنية؟

قلت مؤكدا:

- الأغنية العراقية "وأردفت" ربما كنت مشغولة مع الزبائن فلم تنتبهي إليها!

- آه أغنية بائع الورد!

ذهبت إلى آلة التسجيل، فتهادت موسيقى ما ثم رجعت:

على رأسي حالما تنتهي بعض الأغاني التي طلبها زبون قبلك.

يبدو أن لديكم أشرطة عربية وأجنبية كثيرة؟

أشرطة مختلفة فمقصفنا يزوره زبائن من دول عربية كثيرة.

عراقية.. عربية.. عالمية. كل شيء مختلط.. فيروز.. حضيري.. الفس برسلي.. ديمس روسز.. لايهم.. أغنية بائع الورد كما تصفينها أعجبتني عن بعد. نبعت في بلاد ملبدة بالغيوم هادئة عنيفة، ودعتني ففيرت طريقي، وكنت من قبل لاألتفت إليها. آنف من سماعها حقا:

- عراقي أنت؟ "قالتها بلهجة لبنانيّة خالصة وأردفت من غير أن تنتظر جوابي بل اكتفت بهزة من رأسي وابتسامة" أنا أمّي عراقيّة.

أمّها لبنانيّة أمّ عراقيّة. من ير سمارها وبشرتها الحنطية الرائقة يظنها غير لبنانية. كلّ شيء جائز بلغة السكارى مادامت الكلمات تصبح نغما والنغمات كلمات. لاأدري هل أمطرت في الخارج أما مازالت تنذر، أذكر أنّي نهضت إلى الحمام مرّتين، واختلست نظرة إلى باب المطبخ الذي انفرج مصراعه قليلا فرأيت أو خيل إلي أني

أرى ملامح طباخة تميل إلى السمنة ذات وجه من شرق آسية، **وشاباً مراهقاً رشيقاً** يندفع من المطبخ محملا بصحون نحو المناضد الأخرى غير أنّها أتت نحوي من حيث لا أدري:

- آثوريّة؟

تنصرف عن جوابي إلى معنى آخر:

- مقيم هنا في بيروت أم سائح؟.

قالت عبارتها بأسلوب مهذب.قرأت في عينيها فضولا يتخفى وراء السؤال. العرب يذهبون إلى العراق الغني، فلِمَ نأتي نحن لنقيم، لكنها لاتعرف أن الغيب هو الذي دعاني. الغيب وحده، والمستقبل ثم سبقت أذناي بصري. هذه الفاتنة السمراء لاتدري حقا كم هي جميلة ساحة أم البروم بصخبها وضجيج موسيقاها الشعبية وقدور عرباتها الرابضة على الأرصفة المحملة بالكراعين ورؤوس الخرفان، ونسائها قارئات الطالع يوم قدحت إحداهن شرارة السفر في نفسي فوجدت أني لابد أن أسافر وأرى العالم إنه الغيب ياسيدتي انكشف لي فدعاني مثلما دعتني أغنية عراقية خافتة داعبت أذني حين عبرت الرصيف فجئت كنائم يمشي حتى استقر بي المقام أمامك عند هذه الطاولة:

- مقيم منذ سنة!

- تدرس؟

- لا.. أشتغل في الصحافة والطباعة!

جمالها اللافت أيقظ فيّ بعض الصحو فتبيّنت شذرات من ملامحها: عريضة الوجه، رشيقة، حديثها يتلألأ مثل الموسيقى التي استوقفتني وأنا على الرصيف.لم تكن وحدها صاحبة الحانة، بل تشاركها أختها الكبرى..أمّا عنّي فليس عندي شيء أقوله.صحفي

وكفى أو لأقل بشيء من التحفظ بعض الأحيان صحفي أكتب انطباعات عن الناس والمجتمع وفي أحيان كثيرة يوكل إلي صاحب المطبعة مهمة صف الحروف وخلط الحبر، ومعالجة الزنكراف وهو عملي الأصلي تلك الشغلة التي تعلمت فنونها في العراق يوم كانت البصرة تعج بالمطابع والصحف المحلية :

- صحفي؟

هل سمعت من قبل بنهر خوز كما سمعت عن بائع الورد المغني وكيف انتقلنا منها إلى العشار ثم استأجر والدي محلا جنب مطبعة السلام فربطت الجيرة بين أبي وصاحب المطبعة السيد عبد الحميد الحلفي الذي اقترح أن أعمل معه في أوقات العطل حتى أتقنت المهنة ووقفت على اسرارها.. ربما لم أكذب حين ادعيت أني صحفي:

- معظم العراقيين في لبنان يعملون في الصحافة!

- هل هناك عمل آخر؟

- العمل في المطاعم والمحلات التجارية!

- ماذا بعد؟

- من يرغب في العمل يحصل عليه!

أعرف ذلك ولو لم أجد عملا في المطبعة لعملت في مطعم شرط أن ابقى لأرى العالم الملون الجميل ولا أصعد جبلا وأطلق الرصاص كل شيء مقبول لكني فقط أحب أن أطيل الحديث معك:

- منظف أو خادم في مطعم!

- المهم إنه عمل.

ورغبت عن أن أضايقها لاسيما أنها كانت تتحدث معي بحسن نية:

- إنك على حق.

والحقّ إنّ "نوليا" استلطفتني.قالت لي لولا أنّي مثقل لأمرت لي بكأس على حسابها.ووعدتني بذلك في يوم آخر.لقاء أشاع البهجة في نفسي على الرغم من كابوس ثقيل جثم على صدري قبل ساعات.كانت تنصرف إلى الزبائن بين حين وآخر، ثمّ تعود إليّ.لقائي بها لم يشتت سحب الخوف تماما.مازلت أتصوّر شرا يقرع الأبواب، وحين غادرت الحانة...رأيت بعض القطع الداكنة تغطي السماء.. . غيوم شتّتها وأنا في حالة صحو أغنيةُ بياع الورد التي تسللت من الباب لكنها عادت وتلبدت من جديد.

إذاً لم أكن لأبالغ في قلقي!

الجمعة 12/ 1/ 1976

صداقة حميمة شدّتني إلى الحانة قد تغير مجرى حياتي في الأيام القادمة.

كنت أعمل إلى الرابعة.. اذهب إلى البيت.. أرتاح ساعة أوساعتين ثم اتسكع في المقاهي والحانات. ليست هناك من حانة تؤويني. ولا مقهى معين أقصده. بيروت كلها منفى جميل وأنا حر في الذهاب إلى أي مكان كان. الشرقية.. الغربية.. الضاحية.. الحمراء.. منطقة السفارات...الساحل. صخرة الانتحار ويبدو أن بيروت بدأت تضيق وتنحسر، وسوف يتقلص منفاي إلى حانة صغيرة، وإلا ماذا يعني أني استقر في مكان محدد؟

رأيت أختها هذا اليوم.شقراء فارعة القوام في الثلاثين من عمرها.قالت:

- أختي نريمان

لاشك أني أفهم نوعا ما ماذا يعني اسمها أما نوليا وكنت أظنه لوليا فلا أدري ماذا يعني.ابتسمت عن أسنان ناصعة بيضاء ذات بريق:

- كيف أنت؟ كيف حالك؟ اشلونك؟ إن شاء الله بخير "قالت ذلك بلهجة بغداديّة بحتة"، وما زلت مندهشا. لم أر لبنانية سمراء.. أمامي عراقية بيضاء مثيرة ولبنانية سمراء أكثر إثارة. الأمر مقلوب، والدنيا مقلوبة..المنطق يقول العراقية سمراء واللبنانية بيضاء، ولست سكران. أقسم أني صاح لما أباشر الشرب بعد:

إنك تجيدين اللهجة العراقية!

وأقحمت نوليا نفسها:

- أختي عراقية مثلك.

وقالت نريمان بابتسامة واسعة:

- بيور عراقية بيور

- مقيمة منذ زمن؟

- أووه زمن طويل!

وانبرت نريمان:

- وأنت؟

- لا أنا ولاشيء سنة تقريبا!

وران صمت مفاجيء بيننا نحن الثلاثة ماعدا همهمة بعض الزبائن ولحن أغنية خليجية من الماكنة المستندة جنب عمود ضخم يسار الطريق المفضي إلى الحمام، فقلت برجاء:

- أود لو سمعت أغنية عراقية!

فردت نوليا بابتسامتها ذات البريق:

- تكرم عينك لكن حالما يغادر بعض الزبائن الخليجيين إنهم يحبون تلك الأغاني!

ولم يكن هناك مجال للأخذ والرد حيث اضطرت إلى مجاراة الزبائن، ثم انصرفت مع زبون إلى الخارج في حين توجهت نوليا إلى المنصة. أعترف أن حنقا طارئا يجثم على صدري كلما رأيت عراقية مع آخر غير ابن جلدتي.الحنق شكله واحد وكميته واحده لايميز بين مومس وأخرى فهل أسجل أنا عنصري أم وطني ولعلها تمزح وتدعي أنها عراقية مجاملة منها لي لكني بالتأكيد سوف

أنسى، وبدت لي المسألة مع فراغي من الكأس عادية.نحن هنا نضاجع اللبنانيات واللبنانيون هناك في المغرب ينامون مع المغربيات وأهل الخليج في القاهرة؟هناك أمور كثيرة تشغل ذهني: نريمان..نوليا...الحرب الأهليّة المتوقّعة.عليّ أن أغادر قبل أن تغيب رجلاي في مكان ما.. سوف أحملهما بعد دقائق كما حملت ساقين بحذائين ثقيلين مضرجين بالدم وملتفين ببقايا سروال. لم أتحاش هذه المرّة أن أنظر إلى السماء، كأنّي لا أخشى الغيم أن يغضب أو يتلاشى كما انصرفت نريمان بعد ساعة من لقائنا.خوفي الحقيقي أن أفقد رجليّ فهما أوهن شيء يتلاشى من جسدي عندما أسكر مع ذلك رحت ادندن مع نفسي أغنية جذبتني إلى الحانة حتى قدمت نوليا وهي تقول:

- الآن غيرت الشريط.

جالت عيناي في المكان فوقع بصري على المنضدة قرب الباب خالية من الزبائن ومناضد أخرى قريبة منها خلت فأدركت أن الزبائن المعنيين غادروا وما علي أنا أيضا إلا أن أغادر قبل أن تختفي رجلاي فقلت ببعض البرود:

- سوف أسمعها في وقت آخر!

وغادرت قبل أن تلحق بي الأغنية إلى الرصيف!

السبت 13/ 1/ 1976

بقيت في المطبعة إلى الساعة الواحدة.هذه الأيام ازدحم الشغل بنشوب الأزمة، توالى ظهور المنشورات والصحف وولدت صحف ومنشورات أخرى.وكنت غالبا ما اقضي الوقت في القبو وحدي أعالج الزنكغراف وأرتب الحروف في حين يبقى العامل الآخر وصاحب المطبعة في الصالة بالطابق الأرضي. كنت متهمكا في عملي حين هبط الدرج السيد فاروق الأشقر وهو يتأبط رزمة أوراق تتبعه فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها ترتدي سروالا من الجينز متوسطة الطول ليست بذات جمال شعرها مجعد خمنت أنها أهملته فتركت خصلاته تنسدل كما تشاء، أما وجهها فينم عن تناقض غريب، وقد شككت أنها تتجاهل أنوثتها فتتعمد أن تبدو بملامح رجولية مميزة :

- الآنسة لينا الدغيمي

وبسط يده برزمة الورق" ستبقى معك لتوضح لك ماتريد بصدد إصدار جريدة، .التفت إليها ثانية:

- سأطلع على الـ lay out بنفسي حالما تتفقان على صيغته النهائية.

وغادر إلى الطابق الأرضي، فسحبت كرسيا من زاوية المنضدة البعيدة إلى مكان قريب من مجلسي وحين خطت تبينت أنها تشكو من عرج خفيف في ساقها اليمنى:

- هل تسمح لي بالتدخين!

- خذي راحتك!

صوتها رجولي ذو خشونة غير مألوفة لفتاة في سنها:

- سجارة؟

- لاأدخن لكن لايمنع أن أنفث الدخان مجاملة أو سمها ماشئت

وتطلعت في عينيها فلم أستشف أية ملامح تدل على الانزعاج، وقالت:

- كلنا بدأنا هكذا.

- لاتخافي لقد كنت أسرق السجائر من علبة جدتي وأنفث الدخان من دون أن أبتلعه!

كانت تدخن بشراهة وربما أشعلت سجارة من عقب أخرى وانا أتابع معها صحيفة "صوت الشغيلة" والمقالات المخصصة للصفحة الأولى ومربعاتها والزوائد وبعض الاعلانات وكثيرا ماكانت ترتئي عموداً في موضع ما ثم تعود تغير مكانه.كانت تبدل رأيها..تقبل بعض مقترحاتي حول الإخراج والإطار العام ثم تستقر على فكرتها الأولى، فعجزت عن أنْ أتبين أية ملامح يمكن أن أحملها عنها سوى برودتها القاتلة وصوتها الخشن الرجولي:

- الآن كل شيء جاهز هل أثبت الإطار العام؟!

- ليكن هذا الإطار هو الهيكل العام والمربعات الفارغة للأبواب الثابتة مؤقتا فقد نتشاور بيننا لتصبح الجريدة فيما بعد من الصحف اليومية!

- آمل لكم كل خير!

وأخرجت من جيب قميصها الخاكي بطاقة ووضعتها على المنضدة:

– عنوان مكتبنا تستطيع أن تزورنا في أي وقت!

وغادرت القبو فاستفزتني عجيزتها وهي تنحني صاعدة السلم مستندة بيدها إلى الجدار. بانت أكثر أنوثة مما لو قابلها أحد وجها لوجه ولعلني أردت أن استوقفها من دون سبب :

– أي تغيير جديد ترتئينه يمكن أن تخبري السيد فاروق.

– أرجوك أن تهتم بهذا العدد على وفق ما اتفقنا عليه فهو العدد التجريبي صفر.

– ولم تمر دقائق حتى هبط الدرج السيد فاروق الأشقر ثانية، فألقى نظرة على العمل وقال:

– شد حيلك الاثنين بعد الظهر يستلمون العمل لاتنس اسحب ثلاثة آلاف نسخة!

صوت الشغيلة، منجل ومطرقة..الاستعمار..العمل الوطني.. الاتحاد السوفيتي، الصين، الشيوعية حديث عن جرائم الامبريالية والاستعمار:

– أظنهم شيوعيين!

– جماعة منشقة عن الحزب الشيوعي. شيوعيون متطرفون سوف يطبعون جريدتهم في مطبعتنا إلى أن يبتاعوا واحدة، ودفعني الفضول إلى أن اسأله:

– يبدو أنها مسؤولة الإعلام في التنظيم؟

– لينا ابنة منطقتنا من عائلة معروفة في البربير طالبة في السنة الثالثة بكلية الآداب تركت الدراسة والتزمت خدمة التنظيم للأسف ضحت بمستقبلها الدراسي !!

– لكن الأهم من ذلك كله انها تحاول أن تلغي أنوثتها!

- هي هكذا تهمل نفسها منذ الصغر ولاترتاح للعمل مع النساء!

- مسترجلة.

- ياسيدي لن يزداد الذكور واحدا ولن تنقص النساء!

فقلت كأني أحدث نفسي، ولم ألتفت إلى أنه حمل تعليقي على محمل الجد:

- معتوهة!لاشك أنها معتوهة!

- فعلا مثلما قلت فهذه الفتاة استرجلت وانضمت إلى مجموعة يسارية متطرفة فخرجت على اجماع منطقتنا التي عرف عنها انتسابها إما إلى جماعة قليلات أو الفكر السني!

الأحد 14/ 1/ 1976

– خرجت لشغل ما.

ربما بوقاحة ولم أنتبه لنفسي :

– مع زبون؟

أين ياترى ذهبت؟هل هي الغيرة؟أظنّ أنّ شكلي أصبح مقرفا.شعرت أنّي في بيتي ومن حقي أن أرفع الستار.قالت لي نوليا :

– لماذا توغل في السكر، وأضافت جادّة "يبدو أنّه يتعبك فتبدو في مظهر غريب.

بنت الـ.. ما يهمها سكري أو صحوي إنّي أشرب بنقودي، ثمّ لنفترض أنّي أعرضت عن الشرب، وأعرض غيري ستضطرّ أن تغلق المحلّ أم حرام علي ما هو حلال على الآخرين!عجيب أمر هؤلاء.يقطع عليّ احتجاجي الهادىء زبون أصلع ضخم ذو كرش، أطلقت ضحكة حبيسة، وسألت نفسي:أين يضع عضوه، أظنه يلفه بخيط ويدسّه في جيبه.لِـمَ يتخنث في حين استرجلت لينا!وأمامي امرأة تعانق رجلا كل ليلة!فهل اتفق معها الزبون ذو الكرش، سمعتها تتكلم معه، التفت إلي التفاتة عابرة ولكي لاأخطيء مثلما أخطأت في الأغنية الفارغة من الموسيقى أو الموسيقى الفارغة من الكلام، أتأكد..سمعتها تتكلّم باللهجة العراقيّة، وتعود إليّ فتقول:

– إنّها مشاكل العمل " ثم عقبت مباشرة " ضحكتك كانت تجلجل ماذا دهاك؟ "وأشبه بالحزم " :من الأفضل لك أن تتوقّف.

لست أسير العادة. يمكنني أن أدخن أي وقت وأكف متى أشاء.أسكر وأصحو بإرادتي في جميع المقاهي وفي هذا المكان لاأريد أن اصحو قط، فأرى نريمان تنام كل ليلة بحضن رجل ولينا تحرم نفسها من مفردات الجنس الكثيرة: القضيب.. اللذة... السكس الإيروتك.. العضو التناسلي نعمة من الله فلم تحرم نفسها منه لكنها لاتؤمن بالله فأكبت ثانية ضحكة عميقة يقطفها من أعماقي سؤال عابر:

في أية صحيفة تحرر؟

من المفروض أن أكون صحفيا أكتب تقريرا وأتركه على الطاولة لكن قد أكتب تعليقا واستطلاعا ثم أمارس عملي في القبو مع الحبر والحروف، تأتيني فتاة مسترجلة قتلت في أحاسيسها الانوثة من أجل مباديء انشقت عنها :

صحفي في صحيفة المشرق!

رائع !!

أنت أيضا رائعة فماذا أقول لها عن الخيط واللفافة، ذو كرش يضيع عضوه تحت بطنه، ولينا تسترجل.فمتى اتفقا ؟وفي أيّ مكان ؟مازلت مصمما أن أعرف:

- انّك تجيدين لهجتنا.

- أنا عراقية.

- معقول!

- وما الغرابة في ذلك.

هذه المرة ضحكت من دون صوت.كلّ عاهرات الدنيا يعرفن اللغة الإنكليزيّة أو بعضها بحكم الضرورة والحاجة مثلما أعرف نفسي سكران أو صاحيا أمّا أن تصبح لهجتنا العامية لغة دولية فهذه

معجزة أعجز عن حلّها الآن في هذه اللحظة بالذات كما أعجز عن لغز يتعلق بشكلي. أشلونك. . شكو ماكو. . منين إنت. . . هل أصبح قبيحا أم مرعبا. قبل أن أعرف علي أن اكتشف كم يدفع كل زبون؟ مازالت الليرة اللبنانية تنطح الدولار. ليرتان لكل دولار. رائع.أيكون سعر الشقراء أغلى من السمراء أم ياترى أخطأت. أنا نفسي أفكر بالصداقة والحب، ولا أدفع ثمنا للجنس. الحب وحده وبعض المداعبات. هذا يكفي. أمر قطعته على نفسي منذ أصبت بالسيلان بعدما ذهبت مباشرة إلى حي الطرب. يومها كنت طالبا في الثانوية، مصروفي اليومي مائة فلس أما المرض فقد استعصى وتطلب تحليلا مخبريا. يمكنني أن أستدين من بعض الأصدقاء وأسرق بعضا مما في محفظة أمي فما أفظع أن تشعر بسكين حادة تجري في عضوك كلما هممت بالبول. . .والعلاج ومراجعة الطبيب. . ذلك لابد أن يجري بعيدا عن علم أبي وأمي. الحياء الخجل. حي الطرب فضيحة لأمثالي. . أدعي أني أصبت بمرض في المعدة. احتقان في البلعوم أي مرض أدعيه وأي طبيب. .لايهمني المكان قط ولاتفصيلاته من بريهة إلى باب الزبير حيث مخيم الطرب والغجر والمومسات ومن الضاحية إلى الحمراء إلى الساحل أو المسبح فأية مقهى أو أية حانة. كيف حدث هذا بل كيف أتيت من العراق ولِمَ جئت فتلك تفاصيل لا تخصني سئمت منها المهم ألا تنغلق الأماكن بوجهي وألا ينفضح سري لكن شكلي في حالة السكر يبعث على الرثاء أكثر مما يثير الرعب. وها أنا اغادر كرسيي فأقف أمام المرآة المثبتة فوق المغسلة: هاتان العينان، والأنف. . الأذنان. . الفم الشعر الأسود الفاحم المجعد. أتاكد أنها الشقة وليس هو الرعب!!

الاثنين 15/ 1/ 1976

سألتها عن نوليا فقالت إنّها في البيت تساعد أمّهما.

راودني شعور بالارتياح كوني عرفت أنّ نوليا ليست في حضن زبون الآن في هذه الساعة.خاطر ما مرّ بذهني كما هيّ الخواطر والهواجس المحتشدة الكثيرة لكنه يبدو أسطعها.لاأدري لِمَ لاتجتاحني الغيرة وأنا صاح. لايهمني أن يحترق العالم أو تنام امرأة عرفتها منذ بضعة أيام في حضن رجل آخر. بضعة أشهر عرفت خلالها بيروت. انفتحت لي جميع أبوابها وأسرارها وها هي كثير من الأبواب تغلق بوجهي. من البربير حيث أسكن إلى الحمراء والساحل.. الحمامات والأشرفية. الآن لاأغامر وأنا اسمع تحذيرات الشارع. صاحب المطبعة وصحيفة المشرق فاروق الأشقر حذرني من الخطف وأكد أنه يفكر بنقل المطبعة إلى شتورة. سنة مرت، وقبل بضعة أيام بدأ سر من أسرار بيروت ينكشف.كان لدى نريمان متسع من الوقت للحديث.قلت ومازلت في شك:

- المشكلة إنّ أختك تتحدّث لهجة لبنانيّة بحته، أما أنت...

قاطعتني من دون تأفف:

- أنا عراقية ألا تصدق؟

- كنت أظنك تمزحين!

لم يبد عليها أي ضيق :

- هناك أمور لامزاح فيها!

- معك حق!

- المصادفة..الحياة..والموت كثير من الأمور لايمكن أن تكون مزاحا.

ماذا كذبة أخرى أم كلام سكارى؟موت حياة !أسألها عن لهجة ولسان مبين فتذكر الموت والحياة وأنا لاأريد أن أسكر بهذه السرعة.الحرب - إن اشتعلت - وهي ليست مزحة لا أستطيع إيقافها بكأس. ليست هناك من حرب بدأت بمزاح أما أنا فأكره أن أفقد رجليّ. من المحتمل أن تسكرا أو لا :

- أنا على سبيل المثال أمامك مصادفة.الحياة كلّها مصادفة.

وطلبها زبون وحيد يجلس عند منضدة تفضي إلى باب المطبخ فذهبت تلبي طلبه وجلست معه دقائق تلاطفه. كنت أعجب من أي عراقي يتحدث عن نفسه بصراحة فنحن الجيل الذي هرب بعد عام 1968 عشنا زمن الغموض والشك. نشك بكل شخص ولا ننفتح.انقطعنا عن أسمائنا التي حملناها يوم وُلِدنا وأمامي امرأة عراقية لاتخفي عني كل شيء.. حالة شاذة. كنت أتمعن في شيء ما على الجدار حين انتشلتني من هواجسي:

- تأخرت عليك؟

- أعرف طلبات الزبائن لاتنتهي وأرجو ألا أكون قد أزعجتك في الحديث.

- أبدا لا ليس عندي أي شيء أخفيه.

- قلت إنك نجوت من موت محتوم!

- لست أنا بالضبط كان أبي يعمل في البلاط الملكيّ، وقد قتل يوم 14 تمّوز، أمّا أنا فكنت مع أمّي نصيّف هنا في لبنان، كانت اتفقت مع أبي على أن يلتحق بنا حالما ينهي عمله

لكن. . .وبعد سنتين من الحادث تزوّجت أمّي من البير، فرزقت بأختي نوليا

مسلمة أختها مسيحية، أبوها مسلم وعمها زوج أمها مسيحي. الشرقية. . . الغربية مثل الموسيقى التي سمعتها من دون كلمات بعد أغنية بياع الورد مباشرة. موسيقى فقط.صاح يحكي لسكران المفروض أن أتكلّم فتسكت هي، زوج أمّها البير ساعدها فاستثمرت أموالها. . أنا حين أسكر أول عضو أفقده رجلاي لاأحس بهما. تنفصلان عني تماما.أما الناس فيفقدون رؤوسهم هي فقدت والدها وبعد قليل يمكن أن تقول لي إنني ساهمت في قتل أبيها لأنني صفقت وتظاهرت مع من تظاهروا. تهمة جديدة..عمري مدون في ورقة بطاقتي المزوّرة لم أغيّره. وفي جواز سفري الحقيقي. . لارجعية ولا استعمار..وطن حر. . ديمقراطية وسلام..كان عمري حينذاك سبع سنين.رددت عبارات لم أكن أفقهها. عاش. . . سقط. . . يعيش. . يسقطون..تسقط. . .ونريمان تنصرف لتلبية طلب زبون، تقول باسمة:لم تدمن هكذا؟ماذا أفعل في الحانة إذاً ؟أصليّ ؟ أستغفر الله. . أسبِّح. . أرفع يدي بالدعاء..ثمّ إنّ رزقك على أمثالي، ألوّح لها مشيرا إلى الجهاز، فتتلاعب به لتنطلق الموسيقى الحنون. . Love me tender Love me sweet وتعود إليّ تسألني سؤالاً غريبا:

لماذا غادرت العراق؟

سؤال غريب عجيب، هل أنا شيوعيّ؟ إسلامي؟ قومي؟ آثوري؟ كرديّ؟ ربّما أكون كلّ هؤلاء بل أفضلهم..هارب من العسكرية. لا أحب الذهاب إلى كردستان. نهر خوز في أقصى الجنوب تصنع الحلاوة الشهيرة..اسمي لايهم مادمت أنا أؤلئك أبو فلان الأخ. السيد. . الشيخ. . الرفيق بالإمكان أن يكون اسمي في

جواز السفر محمد ويناديني الناس باسم فرانس.لايهم ويبدو أنّي سكرت لأنني كلّ هؤلاء.!

- مالك سكتّ؟هل أزعجتك؟

تعارفنا في بداية الطريق، وعلاقتنا غضة فلو سمعت عن أرنبٍ دفعني للوراء، وحقل ألغام، ورجلين مقطوعتين عافت نفسي الطعام بسببهما لاتهمتني بالخوف والجبن:

- كلا، لكني غادرت مثلما غادر الآخرون!

فغمزت بعينيها كأنها تدلل طفلا:

- شيوعي؟

- كلا والله.

- قومي؟

- والعياذ بالله!

- كردي!

أعود أسال نفسي:أين كردستان من الجنوب؟للمرة الأولى رأيت جبلا حين استدعيت إلى الخدمة في الجيش. أربيل.. الجبل يسقط أمامي فجأة.. مصادفة.. بل ليست مزحة مثلما قلت، والثلج أيضا إذ وانا صغير ألعب بالحالوب أتخيله يتساقط في البلاد الباردة بشكل كتل ضخمة تشبه قوالب كبيرة الحجم نبتاعها في أيام تموز وآب عز الحر أما السروال العريض فظننت أنه يسهل مهمة من يلبسه فيغنيه عن المرحاض عند المشي الأمر الذي لاأتمكن من فعله أنا صاحب الجلابية:

- بل عربي ابن عربي!

- غير معقول!

فقلت ساخرا من خيالات الطفولة والخمرة وكردستان ونذر الحرب:

- أنا كل هؤلاء دون أن أدري!

- عجيب!

- وما الغرابة في الأمر؟

إذاً لم غادرت العراق؟

فقلت بشيء من الضيق غلفته بابتسامة خجول:

- كثير من اللبنانيين والمصريين والسوريين هاجروا منذ القرن الثامن عشر ومازالت الهجرة مستمرة هل يحرم علينا ما هو حلال للآخرين؟

آسفة لكني متيقنة أن كثيرا من العرب هاجروا بسبب الوضع الاقتصادي!

اجتاحتني موجة صحو.. العراق بلد خير..دجلة والفرات.. النفط.. الزراعة..من يهاجر لغير الدراسة والسلك الدبلوماسي يضع نفسه أمام الشك والتساؤل.قلت بشيء من التأثر:

- نحن بلد غني وأظن السيدة والدتك هاجرت بسبب وضع آخر غير الاقتصاد.

فهزت رأسها وقالت بابتسامة بدأت أشعر أني بحاجة إليها:

- الآن فهمت!!

- ماذا فهمت؟

- إنك سياسي!

- أبدا لا لكني هاجرت لأن العراق أصبح لايطاق!

الثلاثاء 16/ 1/ 1976

اليوم جربت أن أتمرد على المقصف الملكي.

حين صحوت ذهبت مباشرة إلى العمل...

منذ بضعة أيام لم يكلفني صاحب الجريدة بكتابة أي استطلاع اجتماعي أو سياسي بل طلب مني أن أنزل إلى القبو حيث أنهمك بصف الحروف.كانت هناك مقالات كثيرة ومنشورات وبيانات تتطرق لموضوع الاحتقان والجو السياسي المتوتر علي أن أصحح اخطاءها وأتابع تسطير كلماتها. وأكد الرجل ثانية أنه يفكر أن ينتقل بمطبعته إلى شتورة او بعلبك إذا ما اشتعلت شرارة الحرب. في العصر كنت أحس بفراغ. أصبحت أشبه بالأسير للمقصف الملكي.ليس من شأني أن أتخذ مكانا أرتاده أكثر من غيره لافي البصرة ولابيروت أو أي مكان آخر.اليوم في مقهى بشارع فرعي يطل على سوق الهنود وغدا أقضي العصر بكازينو عند ساحل شط العرب.. والميناء.. والخورة.. من مكان إلى آخر.. من الساحل إلى الشرقية فالضاحية والحمراء. مكاني الثابت الوحيد الشقة التي أجرتها.ربما آوي إليها ساعة بعد العمل ثم أخرج لأعود بعد منتصف الليل وهناك علامات تشير إلى أني سأفقد كثيرا من حريتي وموردي الاقتصادي فقد فاحت رائحة الحرب وظهرت معالم الحواجز على الطرقات.كثير من العراقيين القادميين إلى لبنان انضموا إلى المنظّمات الفلسطينية وانخرطوا في العمل الفدائي وسوف يبرز في الطرقات أكثر من حاجز يوقفني وأنا في طريقي من البربير إلى الحمراء أو إلى

الساحل. اليوم تجرأت وقمت بجولة طويلة عريضة تمردت فيها على المقصف الملكي. ذهبت إلى الحمامات وجلست في مقهى مشهور ثم عدت إلى الحمراء وقضيت ساعات المساء في مقهى قريب من مدرسة الراهبات غادرت كرسيي إلى الحمام ووقفت بضع دقائق أمام المرآة فوق المغسلة.أنا صاح. شكلي لايبعث الشفقة ولا يثير الرثاء. مجرد تمرين أختبر به قدرتي على التمرد.كان علي أن أجرب كيف أقضي الوقت من دون المرور بالمقصف الملكي. لاأنكر أني شعرت بالفراغ. لم أندم لأني لم أرتبط بعلاقة حميمة مع أي لبناني خلال تلك المدة أما العراقيون فإذا ما التقيت أحدهم مصادفة فلن يشدني إليه غير السلام. أظن أني مازلت أخجل من خالد مردان. منذ أن رأيته يغتنم فرصة ذهبية لاحت حين وضع معلم الحساب كيسا معبأ بالفستف على الرحلة فأخذ يلتهم الفستف ويدس اسفل الكيس قطع الطباشير.. في جلسة حميمية حكيت لأخي الأكبر معلم التاريخ عن تلك النكتة فأخبر مدير المدرسة. لم يعاتبني خالد مردان على الرغم من العقاب الذي تعرض له أما أنا فقد أقسمت أن لا اذكر أي أحد بخير أو شر وألا أدخل في علاقة متينة مع أي مخلوق قط.

لعل هناك من يظنني انطوائيا لاأحب الاختلاط. قد يكون هذا صحيحا إلى درجة ما..

لكن سواء كنت منطويا أم.. . ماذا بإمكان العراقي أن يعمل في بيروت غير أن يصبح فدائيا أو صحفيا أو أديبا؟ كان من السهل أن أنضم إلى أية من المنظّمات الفلسطينية لاسيما أن باب التطوع مفتوح لكل العرب فأكون صداقات متينة وأتعرف على أشخاص مهمين أستند إليهم عند الضيق. الحذر دفعني إلى أن أعيش كما أنا حتى العمال معي في المطبعة تحددت علاقتي بهم من خلال

التعامل الرسمي المحض..خطر في بالي أن أتوجه إلى مقر جريدة الطليعة فأوقفت سيارة أجرة أقلتني إلى شارع السلام عند بناية قديمة من طابقين على بابها واجهة حملت عنوان " حزب الشغيلة" وشعار المنجل والمطرقة. أول ماقابلتني الصالة وغرفة على اليمين مغلقة الباب. كان البهو يعج بالدخان وأقداح الشاي ونقاش محتدم بين شابات وشباب ميزت منهم شخصا في العشرين يتحدث اللهجة العراقية بلكنة بغداد. سألت عن الآنسة لينا فرد علي صوت أنها خرجت توزع الجريدة وانبرى العراقي يسألني:

- الرفيق عراقي؟

- نعم

- سوف تعود على الأقل بعد ساعتين!

- طيب قل لها العامل في مطبعة المشرق!

رجعت إلى الحمراء. تعشيت في مطعم الظلال، ولفت انتباهي محل كبير للقمار تزين واجهته ألوان متراقصة.دفعني الفضول إليه ولم أقامر من قبل فوجدتني أستقر على كرسي مريح أمام لوحة ذات مربعات تحمل صورا وأرقاما. لعبة لذيذة تسحر فعلا.أشياء كثيرة ومشاهد متنوعة فاتني أن أنتبه إليها. المقصف الملكي فتح عيني على أمور كثيرة تحيط بي كنت غافلا عنها.دفعت ليرة وتابعت اللعبة.ثم ليرتين. خسرت خمس ليرات وأوقفت اللعب.هذا يكفي قلت مع نفسي، وخطر لي أن أقصد سينما البيكاديللي.ثاني مرة أزور فيها السينما ولم يشرد ذهني عن الفيلم. شارلي شابلن. ، في القطب..ضحك في جو مشحون بالغضب..حوالي الساعة العاشرة والنصف عدت إلى شقتي. سوف يتغير نظام الحياة هنا. يمكن أن يخرج الفلسطينيون من مخيماتهم واللبنانيون من مكاتبهم - إن انفجر الوضع - فيقيموا حواجز تفتيش. معي جواز سفري باسمي

الصريح وهويتان مزورتان..خالد علي.غسان جواد.. قد تزحف الغربية وتستمر الحرب ساعات. بالتاكيد أفقد وظيفتي وآوي إلى الشقة قبل الغروب. خطف.. اغتيالات.. تفجيرات في الشوارع... اعدامات فأين أصبح وإلى أين يؤول المقصف الملكي. في الساعة العاشرة استلقيت على السرير.. وضعت الراديو الترانسستر على صدري شأني منذ كنت في العراق. هناك ليالي الصيف يمكن أن تستلقي على السطح. الراديو على صدرك تبحلق في السماء ويدك تعبث بالموجة. القاهرة. الأهواز...دمشق.. عمان.. بغداد.. تستمع إلى أغان وتتابع برامج للتسلية وقصصا.ماذا تقول إذاعة لبنان الحر؟ إذاعة لبنان الرسمية تتحدث عن موقف سليمان فرنجية. كميل شمعون يدلي بحديث إلى جريدة السفير.صوت الجبل.. الجميع يتحدثون عن التشنج والتهدئة وأنا قضيت يوما كاملا أجول بين مناطق الخطر المزعومة أقرأ الوجوه وأنصت إلى التعليقات لاهربا من الحرب المفترضة بل محاولة مني للتخلص من تعلقي بالمقصف الملكي!

مع ذلك قررت ألا أكرر تلك التجربة مرة ثانية فقد شعرت حقا بفراغ من دونه.

الأربعاء 17/ 1/ 1976

وجدت نريمان في المقصف.قلت لنفسي وأنا أكرع كأسي الثالثة على التوالي هل تواتيني جرأة تمحو الخجل:الاثنتان تخرجان مع الزبائن، فلِمَ أتردد، واحدة سمراء والأخرى شقراء، وأنا حالي حال الآخرين أدفع مثلما يدفعون، هنا تسقط المحرمات والموانع بالتفصيل واحدة واحدة.كأنّ الخدر فصلني عن العالم:

- هل لي أن أدعوها.

أجابت زاجرة غير جادة:

- دعها وشأنها "وواصلت تتحاشى إجابتي" أين كنت يوم أمس.

لاتدري أو تدري أن سمرتها تثير فضولي. لبنانية سمراء، ظهرها وكتفاها تحفة أما أنا فيبدو أني خلفت ورائي فتيات في سن المراهقة رائعات السيقان يخضن الساقية وقد كشفن عن سيقانهن ولم يعرفن أن حادث القنطرة مدبر ومعد له:

- أسألك عن نوليا فتسألينني عن نفسي.

أشبه بالتحدي لا الغضب:

- وأنا أسألك أين كنت؟

- جربت أن أكون وحدي!

- في المنزل؟

- بل في كل مكان.

- وهل ارتحت؟

طبعا فأنا يمكنني ألا أشرب أو أدمن على شيء " ولكي أتهرب من رغبة تدفعني إلى المقصف " ثم إن نريمان تلومني على إفراطي فليس أمامي سوى الذهاب إلى السينما أو المقاهي!

- تستطيع أن تأتي فتشرب قليلا أو تتناول أي شراب غير مسكر "ولوحت بيديها كأنها تكنس الهواء" أقول لك لاتطلب أي شيء أحسن!

انتقلت عيناي بين قامتها مصادفة وساعة الحائط التي أشارت إلى التاسعة والنصف ثم جالتا في المقصف فرأيت ثلاث مناضد مشغولة فلم يغب عن ذهني أن عدد رواد الليل راح ينقص وقبل أن ألح في فضولي ثانية بسؤالي عن نوليا بادرتني باقتراحها الغريب:

- يوم الأحد تحتل نوليا مكاني في العمل، فهل تحبّ أن تأتي معي إلى البحر.

- ماذا نفعل هناك؟

- أمارس رياضة الغطس.

- ستغطسين أنت ماذا أفعل أنا؟

في عينيها نظرة لاأريد أن اسيء فهمها تقطر معاني بعيدة عن ذهني:

- ألا تحبّ البحر؟

ياسيدتي غاية ماينصرف إليه ذهني أنّ في قريتي نهرا صغيرا وسط مجراه تتشابك النباتات التي إذا ماأخطأ سابح ووصل إليها التفت حوله كالأفاعي فلايستطيع منها فكاكا.فيه الغيلم الذي يعض الصغار ولاتشفى عضته إلّا إذا صدنا غيلما وأخذنا قطعة من ليّته ودهنا بها مكان العضّة، وفيه مخلوقات صغيرة لايبين ضررها في

الحال، فإذا ماآوينا إلى الفراش بدأنا نهرش جلودنا أترين أمهاتنا كنّ على خطأ وهنّ يحذرننا منه؟

تسألني بعينين مفتوحتين بدأت أشك أن فيهما شيئا ما ربما أستدرك معناه خلال الأيام القادمة:

- ألاتحبّ البحر.

الحق إني كنت أزور الساحل وأتلذذ بمنظر الماء ورؤية شخص قد يكون معتوها يتحدى الموت فينط من صخرة الانتحار. الصيف الماضي ظل يعيد تلك التجربة كل مساء... يقفز من علو مثل القرد محاولا أن يثبت للعالم أن تصورنا عن الموت والعلو ما هو إلا خطأ تدحضه قفزته.. هناك من يموتون وهو لما يمت بعد. وفي الصيف الماضي قبل أن تغضب بيروت ويهرب من الصخرة المنتحرون نزلت إلى الماء ولم أذهب بعيدا لأنني أخاف من الكواسج. لعلك تضحكين حين أقول إني قدمت من البصرة وفي خوف شديد من الكوسج. الكوسج في النهر والطنطل في الظلام أما هذا الصيف فلن اقدر على الذهاب إلى الحمامات والساحل والأشرفية:

- ترددت كثيرا خوفا من المسلحين!

- إلى الآن مجرد شائعات!

أهز كتفيّ وأرد وأنا أنفث الهواء:

- وقد تكون حقيقة!

- أنا معك فبداية أي حريق هائل مجرد شرارة صغيرة.

امرأة قوية من النوع المقتحم.لاتخاف، لعل مهنتها طوعت الكثيرين بين يديها فضمنت السلامة في أي مكان:

- لاأخفيك أني ذهبت أمس إلى الساحل فرأيت الأوضاع تنذر بسوء.

- لاتخف عائلة أختي من الأشرفية وستكون معي!

وغابت إلى الداخل ثم عادت تحمل بعض السلطة واللوز:

- جوعان؟

كان ذهني مشغولا بالبحر والمغامرة. كلما رأيت رجلا مقطوع الرجل قيل لي إن الكوسج أكل رجله أما ماذا عن كوسج تحت الأرض يقطع كلتي الرجلين فذلك مالا أستطيع ذكره:

- عندنا السباحة في شط العرب مغامرة كبيرة. الكواسج كثيرة لها حاسة شم عجيبة لاينتج عنها إلا ساق مقطوع أو موت محقق.

- هنا بإمكانك أن تسبح في أماكن آمنة محددة سلفا لاخطر يداهمها. واستفزني سؤالها المفاجيء:

- هل أنت خائف؟

وتحول استنكاري إلى سخرية، هربا من الواقع أو الوهم الذي لمسته في شط العرب النهر الخطر المعبّأ بحيوانات متوحشة والبحر الواسع الكبير الهاديء:

- أنا لاأخاف إلا من الطنطل!

- ماذا؟

- ألم تسمعي به؟

- كلا!

- إسألي السيدة أمك عنه!

- أرجو ألا تخاف من البحر!

- ربما لاحت على شفتي ابتسامة باهتة وسري ينقلب فجأة من السخرية إلى الجد:

قلت مادمت معك لا.

السبت 20/ 1/ 1976

الساعة الثالثة عصرا فترة القيلولة، قبل الذهاب إلى المقصف لفتت انتباهي حركة من خلف الباب الرئيس للشقة تلتها طرقات خفيفة أشبه بالنقرات، اجتزت الدهليز إلى الباب فإذا بها لينا الدغيمي. السروال ذاته والتسريحة ومشية العرج الخفيف قالت كأنها غير مصدقة:

- أنت تسكن هنا!

كانت تحمل على ظهرها حقيبة من الكتان طويلة مفتوحة الغطاء مثل حقائب سعاة البريد فبانت رزمة جرائد من فتحتها العلوية:

- يمكن أن نشرب القهوة معا! " وأضفت وأنا أشير إلى الجريدة المبسوطة على المنضدة" انظري لم أنس صحيفتي قط!

فارتمت على أقرب كرسي واجهته في طريقها وأشعلت سجارة:

- في مكتب الحزب قالوا إنك سألت عني؟

وأنا أنصرف إلى المطبخ:

- جئت للسلام أولا والسؤال عن العمل ثانيا!

- أي عمل؟

- هل أنتم بحاجة إلى عامل؟

- عامل مطبعة؟

- قلت إنكم سوف تشترون مطبعة خاصة بكم فحدثتني نفسي عن حاجتكم لعامل خبير في الـ lay out يصفُ الحروف ويجيد عمل الزنكراف.

فأجابت وهي تنفث نفسا عميقا من الدخان:

- بعض الرفاق عندنا يتقنون الصنعة ولا أظننا نحتاج إلى شغيل براتب "وبعد رشفة ونفس آخر"

- وشغلك؟

- قد ينقل السيد الأشقر مقر عمله إلى شتورا أو ربما خارج لبنان!

لاحت السخرية على قسماتها ومطت شفتها السفلى:

- ابن محلتي أعرفه جيدا سيكون من أوائل المنهزمين مثله مثل بعض مسيحي الشرقية الذين نقلوا معاملهم إلى السعودية!

- معرفتي به قليلة ماعدا انطباعي عنه حين رأيته يصلي في المطبعة إذ يحين وقت الصلاة فظننته من التيار الإسلامي المعتدل!

- هذه هي البرجوازية صاحب مطبعة غني يبدي تعاطفه مع جماعة قليلات لأنهم مركز الثقل في البربير وغدا لو سيطرنا نحن لتودد إلينا أما إذا. . .

وتوقفت عن الكلام فرانت لحظة صمت استغلتها في إشعال سجارة ثانية، فقلت أستطلع منها المستقبل:

- هل تتوقعين نشوب الحرب!

- بالتأكيد!

ونهضت وهي تسحق عقب سجارتها في المنفضة، فبسطت إليها يدي محاولا أن أجس نبضها بحذر:

- هات يدك!

- ماذا ؟تقرأ الكف؟

فتسللت إلى أنفي رائحة الطين القديمة من نهر أبي الخصيب. انحسر عن عيني شكلها الرجولي. تلاشى. . كنت أشم فيها عرق الفلاحات وطواشات التمور. مهما يكن فهي امرأة:

- يداك جميلتان وشعرك أيضا.

أطلقت ضحكة ساخرة، وقالت وهي تلقي الحقيبة على ظهرها:

- ماذا قلت؟

- ألم تسمعي؟ وتداركت: هل غضبت؟

فقهقت عاليا، وأردفت:

ألا تصدقين؟

- أنت تكذب!كذاب كبير وغير واقعي!

- كل امرأة فيها مسحة ما من الجمال.

- أعرف نفسي جيدا. لست جميلة ولا أريد أن أكون جميلة ولو قدر لي بعد ولادتي أن أكون بشكل آخر لرفضت!

صدمة متوقعة من امرأة لاتعرف المجاملة، امرأة قاسية الطبع، ترفض الغزل والكلام الناعم. . عينا قطة وصوت خشن. . سلوك نمرة:

- كل هذا لأني مدحتك؟

- أتعمد أن أعمل في الحقل من دون كفين واقيين، وأهمل شعري، أنا جميلة بنظري وغير ذلك بنظر الآخرين!

- ليست هناك امرأة غير جميلة!

وشدت حزامها ثم عقبت:

- ماهو الجمال بمفهومك!

- أية امرأة قبيحة بمسحة قليلة من البودر والحمرة والكحل وشسوار الشعر ولاتنسي الآن عمليات التجميل يمكن أن تتحول إلى ملكة جمال فيمكن أن أخلق من أية قردة جورجينا رزق!

مطت شفتيها كأنها تعفط:

- مفهوم برجوازي رأسمالي متخلف للجمال!

شجعتني جرأتها على التمادي:

- أليست عندك غريزة مثل الأخريات؟

- هذا حديث طويل يمكن أن أختصره لك بجملة واحدة: لماذا لايحلق الرفيق كاسترو لحيته؟

- لعله يقلد كارل ماركس.

- الشيوعية إبداع لاتقليد مثلما تتصورها الأحزاب الشيوعية العربية البائسة!

- ماذا ترين؟

- الرفيق آلى على نفسه ألا يحلق لحيته بموسى مصنوع خارج كوبا وسوف يحلقها عندما تصنع كوبا أمواس الحلاقة!

فراودني استنكار وأنا أتطلع إلى سروالها:

- ها أنت تخرجين عن المبدأ وترتدين الكابوي الأمريكي القادم من بلد الامبريالية القذرة!

- لأنه رخيص وعملي يمكن أن ألبسه عدة سنوات. الأمور أكبر من أن نعالجها بسطحية مثل شخص يسكن شقة متواضعة المطبخ فيها هو الصالة، وهو غرفة النوم يعيش حياة العمال ويحلل الأمور تحليلا برجوازيا. تلك هي المأساة!

- أووه لاتعقدي الأمور.

وهصرت يدها فاستلتها من يدي دون أن أدري أن رغبتي ماتت وخبا انفعالي:

لو قلت لي يداك خشنتان وشعرك غير مرتب وفيك رائحة تعرق ووجهك طبيعي ليس جميلا لاقترحت عليك أنا أن نذهب للفراش لكنك على مايبدو دجال غير محترف!

فضحكت من أعماقي وقلت:

- أظنني قلت من الطنطل بأعجوبة!

- ماذا؟

- ياسيدتي كائن خرافي يظهر في الليل لأي إنسان يقطع البر أو البساتين فيضع قضيبه في دبره إلى مطلع الفجر!

ردت بشيء من النفور:

- يبدو أنك ماتزال تعيش عصر الخرافة!

فهتفت مع نفسي:

- إنك حقا معتوهة

- ورافقتها إلى الباب الخارجي!

الأحد 21/ 1 / 1976

ترجلنا من السيارة عند الجرف وهبطنا المنحدر إلى الرصيف النائي القريب من استدارة الحمامات.قالت إن كل شيء جاهز، وكرعت من قنينة جرعة كبيرة من الماء ثم عبرنا الرصيف إلى الزورق. مازالت برودة يناير تهوم في الجو لكن دفء البحر أضفى عليها مسحة من الحنان.عالم جديدأشبه بسحابة من الألوان مبسوطة أمام عيني أنا القادم من منفى فيه كل شيء ولا شيء.كانت تجدف فنبتعد مسافة ما عن الساحل باتجاه الدوار، ثم تركت المرساة تهبط فثقل الزورق في مكانه:

سأغوص في هذا المكان!، وستبقى أنت هنا، وأضافت ممازحة:

لاتغادر الزورق!

أين تظنيني أذهب!

أشياء جديدة لم أرها من قبل.. شط العرب. ساحل الخليج..قنينة الأوكسجين.واقية العينين.البدلة.الرمح الطويل المدبب.معدات لايهمني أمرها.فكري شارد ثمّ انتبهت إلى أنّها بدأت تتعرى، فيقشعر جسدها من نسمة خفيفة هبت عبر الساحل إلى البحر.لم أصدق عينيّ أنّ امرأة تبيع جسدها كلّ ليلة، فتظلّ تحافظ عليه بذلك الشكل الرائع. تمثال مرمر أبيض صاغه أحد نحاتي اليونان القدامى لإلهة ما.. اختلست نظرات طويلة عن بعد إلى سيقان فتيات المدرسة السمراوات وتحسست صلابة جسد

مستهلك في حي الطرب.ترى كيف يكون جسد نوليا الأصغر سنا البرونزي اللون؟ جسدها يجرفني لحظات. امرأة لاتنكرني وحدي وتثبت الرجال الآخرين مثل نوليا أو لينا الدغيمي التي تمحوني وكل الرجال! أعجب بجسدها. وربما كانت تقرؤ غفلتي:

– هذه البدلة ثقيلة بعض الشيء لأنها شتائية تقي من البرد!

كانت تستعدّ للغطس. فكرعت مابقي من قنينة الماء، وكنت أجلس وحدي على ضفاف شط العرب فأخاف منه أكثر من أي بحر.خرافة خفيفة أو نسمة هواء تلفح رقبتي فاشعر بخدر لذيذ. رائحة عشب طفيلي يطفو على الماء، مايوه أزرق بلون البحر ولحظة تعر. الميني جيب بضعة سنتمرات فوق الركبة. لونجحت بمعدل عال لدخلت الجامعة وتأجل التحاقي أربع سنوات بالجندية. طالبات الجامعة أدخلن الميني جيب إلى البصرة ومعي امرأة تخلع ثيابها بحرية. . .شمس ساطعة اكتسحت غيوما كادت تشحن الجو فتختفي وتعود تخيم بظلالها متربصة من بعيد.من يدري لعلني أتصور أشياء لم تحدث قط. لم أر غيوما قبل أن أدخل المقصف الملكي.ليس هناك من توتر بين الشرقية والغربية. أوهام، أما يدي فتمتد إلى ظهرها تلمس زبدا ناعما:

– ولا إعقل!

المناظر تلك الممتدة نحو الافق التي تغطي عينيّ لن أقبض عليها بيدي.الآن أبسطها فوق راحتي، فكيف تكون إذا اندلعت الحرب.سكون مشوب بالريبة. . . البحر نفسه ساكن.مع ذلك مامن أحد يشعر إلّا وهذا الصمت الرائع سينفجر في لحظة ما. التفتت إلي بعد أن ارتدت بدلتها:

– هل تعرف السباحة؟

تعلمتها في الساقية مع أطفال البستان، ونزلت إلى شط العرب مرة أو مرتين:

- لا أظن أني نسيتها!

تلك أمور لاتنسى مثل المشي والكلام، وحلت فترة صمت انصرفت فيها إلى فحص أنبوبة الأوكسجين:

- هل جربت الغطس؟

ذاكرتي تتشبث بالنهر الصغير في قريتي نهر خوز بأقصى الجنوب.طين السواقي رائحته تفوح على ساحل بيروت وتنوء بصورة طفل غطس في بالوعة المدرسة التي فاضت بانتظار سيارة البلدية، كنا نضحك منه، وأنا الآن أغوص في البرّ.أسوح في البلدان من دون جواز.غجري..كلنا نحمل جوازات سفرٍ السياسي منا ورجل الدين والضائع.كلنا فدائيون وصحفيون شعراء وكتاب، فمن علمني السباحة في البصرة:

- مالك ساكت.

- البحر سحرني.

- جميل ؟

ليس دجلا أو كذبا كما فعلت مع لينا الدغيمي إنها حقا جميلة لم تترك مخالب الآخرين من آثار على جسدها وكأنها في الثامنة عشرة من عمرها:

- جدا كظهرك!

- جِدّ؟

- لاأبالغ ولاأنافق!

- إذاً سأكافأك على مديحك لي مادمت تعرف السباحة سأدبر لك المرة القادمة بدلة فتنزل معي.

بدت أشبه بمخلوق قادم من الفضاء.

غابت عني حورية البحر.

غطست. اختفت.. تلاشت.

كم تغيب؟تمنيت أني لو أجد ملاذا في الماء إذا ماقامت الحرب. للمرة الأولى أجلس على الساحل فأرى أشباحا وأحس المدينة غريبة عني. حين دخلت بيروت شعرت أنها تعرفني منذ زمن بعيد أكثر مما كنت أعرفها.. وجدت ألفة في الساحل والصخب المنتشر على الأرض والماء. أين هي جبال أربيل. ابن البصرة.. الذي لم ير جبلا في حياته واجهه زوزك وهندرين وسكران. كان ينوء ببسطاله وحقيبة المعدات على ظهره فكره الجبال التي فاحت منها رائحة الموت وأطل عليه بعدئذ في هجرته الأولى جبل أليف ينزل على قمته الثلج وعند سفحه يسبح المصطافون، فهل انتشرت حمى الموت في كل مكان. قبل بضعة أيام على الساحل قريبا من هذا المكان قرأت غضبا كامنا في العيون ورأيت شبابا مدججين بالسلاح وفي هذه اللحظة ليس هناك من أحد سواي وبضعة أشخاص يروحون ويجيؤون وثمة زوارق صيد عن بعد وباخرة أنت وسط البحر وخفت صوتها قبل أن تطلع إليّ نريمان وبيدها الرمح الطويل وتنفض الماء عن وجهها، ثم تتحرر من أنبوبة الأوكسجين:

- ماذا كنت تفعلين هناك؟

- ستعرف حين تغطس.

- يبدو أنك لم تجدي شيئا ما!

لم يصادفني أيّ قنفذ أو أخطبوط ولا حتى محار فأنا خشيت أن تضجر وتغادر فأخرج ولاأجدك!

فاعترتني موجة من الانشراح وهبت نسمة ملأت رئتي بهواء مندى، فقلت:

أين أهرب وأنت تحاصرينني بالماء!

- إذاًستزل معي اتفقنا؟

- وإذا لم نتفق؟

- ألقيك بنفسي في البحر.

- مادام الأمر كذلك اتفقنا!

الجمعة 26/ 1/ 1976

قضيت الليلة معها..

بقيت في المقصف إلى ساعة متأخرة.كانت ترفض أيّا من العروض وفضلت الذهاب إلى شقتي.عاملتني معاملة صديق ولم تتطرق إلى مسألة السعر وهي المرة الأولى أقضي هنا في شقتي ليلة كاملة مع امرأة.كنت أشعر بالسعادة.اللحظات الأولى اضطرمت فيّ الرغبة.أخذتها بين ذراعي، وملت أستريح على صدرها لكن فجأة خفت كل شيء. مثلما جاءت النزوة اندحرت.ليس خوفا من الإصابة بالمرض ولم يكن بهاجس شرير بل هناك وازع ما... برود مفاجيء اجتاحني بعد انفعال حاد. اشتهيتها على البحر وعجزت عنها في منزلي:

- مابك هل أنت متعب؟

- يبدو كما قلت.

- لاعليك في المرة القادمة.

قلت بعد صمت أطبق دقائق:

- سواء أحدث أم لم يحدث فلن أنكر حقك!

فداعبت صدري بكفها الناعمة، وقالت:

- إخجل ياولد نحن أصدقاء!

- آسف

حاولت مرّة أخرى فلم أستطع فانقلبت على ظهري جنبها

أحلق في السقف. أخفقت مع المرأة الوحيدة التي قبلت بي. لينا رفضت الجميع. تريدني مغتصبا فتحقق رغبتها معي مادامت رفضت جميع الرجال فالأولى بي ألا أعدها هزيمة لي وحدي.كلنا برأيها نحن الرجال مغتصبون لابد أن نغتصب بعضنا بعضا لنعرف الجنس، أما نوليا فتقول لي لا . . تمتنع عني وحدي.لاأدري كيف يتعامل معي لبنان. صديق أم عدو أو مشبوه أمر لا أفهمه إلا من خلال نريمان ونوليا ولينا المرأة الرجل الثالوث القديم اللات والعزى ومناة إلهات عبدهن أجدادي قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة ثم عدن من جديد فقبلتني واحدة وأخرى رفضتني من دون سبب والثالثة لم تقبل نذري لأني كذاب ودجال كل هذا حدث كوني رأيت غير الجميل جميلا. إلهة الحرب لينا. أنسى أني عاهدت نفسي ألا أذهب مع بغي.هي المرة الأولى التي زرت فيها حي الطرب فأصبت بالسيلان قلت لتكن الأولى والأخيرة.بنات الهوى والليل في بيروت يختلفن. أكثر نظافة أم أكثر حصانة. كل الافتراضات لاتسوغ عجزي. ثلاث نساء أمازونيات متوحشات يحملن الرماح شبه عاريات وقد تركت قريتي في اقصى الجنوب وذهبت إلى أقصى الشمال أطلق النار ثم هربت إلى بيروت فبرزن لي. المهم إني أخفقت وصوتها ينتشلني :

- ألا تحدثني عن نفسك؟

فقلت وعيناي تحومان فوق جبينها :

- هل ذقت حلاوة نهر خوز الشهيرة؟

- حلاوة ماذا؟

- نهر خوز ربما لم تسمع بها السيدة والدتك لكنها بالتأكيد سمعت عن الطنطل هل سألتها عنه؟

- هذا الذي يخيفك في الماء؟

- في كل مكان

- قل مم تصنع؟

- تشبه حلاوة الطحينية الشهيرة عندكم لكنها ألذ والدي محترف في صنعها ثم شاءت ظروفنا أن ننتقل إلى العشار فنملك ورشة صغيرة لبيع المواد الإنشائية!

- ألك إخوة؟

- اثنان معلم تاريخ وآخر ورث مهنة أبي!

- أنت الأكبر؟

نهر خوز والمدرسة الإبتدائية. خالد مردان. انتهك حرمة كيس الفستق، ومازال ضميري يؤنبني. يبدو لي أني بسببه أصبحت انطوائيا لاصديق لي:

- انا الأوسط.

- عندك أخوات!

- أمي ودت ذلك فكثيرا ماكانت تكرر لو رزقت بنتا لساعدتني في عمل البيت!

- يعني أنت الوحيد من بين أهلك غادرت العراق!

- نعم من حسن حظي

- سياسي؟

كأنك تقولين لم جئت وقد سبقتك نوليا.لوتعرفين أن خدمة الجيش عندنا مفتوحة ومشكلة الأكراد باقية، أية دعوة سنوية للالتحاق بقطعات الاحتياط تعني لاعودة للبيت فمتى أستقر وأبني بيتا أما الألغام على الجبل فتحيط بي من كل مكان.إما أن ينفجر بي لغم أو يقتلني قناص. أخي الأصغر مدلل بيني وبينه خمس سنوات ورث مهنة أبي ومازال طالبا وبيني وبين الأكبر معلمي سبع سنوات

وكانت أمي تبحث عن مولودة بنت ولم تعثر عليها:

- يمكن أن تقولي إني لاأحب العسكرية ومن حسن حظي أني هاجرت إلى لبنان وبعد سفري بشهرين تحرك الشمال فاستدعونا للاحتياط ومازال أفراد دفعتي ينتظرون العودة للحياة المدنية.

فداعبت صدري براحة يدها:

- هل تشتاق لأمك؟

- أبي كتب لي حين عرف برغبتي في البقاء إن قراري يعني موت أمي البطيء!

- ابق هنا معنا أفضل لك!

لكن لبنان يتغير سوف ينشر فيه الموت ظلاله فيصبح مثل كردستان، وقطعت عليَّ أفكاري:

- هل أنت مرتاح في سكنك!

لا اظن نريمان تفهم ماذا تعني بريهة والعشار وبيت واسع في باحتة شجرة سدر ونخلة. أسماء أرددها فتعرف عن حياتي. البصرة والنخل غابات الطلع ورائحة التلقيح العطرة ولشد ما سحرني الجبل في أثناء استدارة السيارة فشد_عينيَّ إلى نخلة رابضة فوقه. نخلة وحيدة على جبل فوق بيروت بين الأرز.نهر خوز أبو النخل... بريهة منطقة سكننا.. العشار ومحل العمل ثم البربير، كل هذا الخير لاشيء نخل وبترول وجيوب معبأة بالنقود، ساحل على شط العرب.. الخليج وأنا لم أر في حياتي بدلة غوص وداعبت أنفي كأنها لاتريدني أن أتوقف عن الكلام:

- يعني شيء أفضل من لاشيء!

ومن دون مقدمات التفتت إليَّ وقالت بلهجة جادة:

- هل أنت سني؟

بيروت عادت تنظر إلي بوجهها الذي خلقت له. ماعلاقة امرأة تبيع جسدها كل ليلة بالدين والطائفة. لغة جديدة تتحدث بها لبنان معي. عندنا في العراق من يشرب لايتدخل بالدين ومن يرتاد الملاهي لايعرف الطوائف. يمكن أن أكون شيوعيا أو قوميا وربما من الإخوان المسلمين لكن:

- يمكن أن تقولي إني مولود من أبوين سنيين!

- سألتك لأن غالبية سكان البربير من السنة وفي لبنان وقت المحن كل يلتجيء إلى طائفته!

ربما أعرف ولاأعرف، ولعلي سمعت الأذان فأدركت ذلك ربما اسمع المؤذن يذكر عليّاً أو لايذكره. مثل دقات الكنائس عندنا في البصرة لا أعرف أهو ناقوس فرح أم وفاة فأنا القادم من قرية الحلاوة الشهيرة فتحت عينيّ في القرية على عوائل سنية وأخرى شيعية.بريهة والعشار..لم يشكل لي الاختلاط عقدة وحين وصلت إلى لبنان وحصلت على العمل في مطبعة المشرق دلني السيد فاروق الأشقر صاحب المطبعة والجريدة على سكن قريب من عملي. فرصة لاتعوض توفّر لي أجور النقل والوقت:

- لو لم أجد هنا لوجدت في الضاحية.

- هنا مكان جيد أنت قريب من الحمراء ونحن لنا علاقة بالمسيحيين في الشرقية وبالمسلمين في الضاحية والبربير على الأقل نشعر ببعض الامان!

- أنت والدتك مسلمة؟

- أجل إسلام سني!

بيروت.. لبنان.. إسلام.. مسيحيون.. سنة.. شيعة.. دروز.. مارونيون... أسماء.. ألقاب لعلها لاتمثل لي معنى أنا

الذي لم أكن أعرف أني سني حين عشت في البصرة، وربما لم أعِ حقا أن السيد عبد الحميد الحلفي الذي علمني فن الطباعة وصف الحروف، شيعي، فقلت وأناملي تتراقص على ذراعها البض:

وأنت؟

لاأدري مثلك والدتي سنية وأختي مسيحية!

السبت 27/ 1/ 1976

اليوم أبلغنا السيد الأشقر قراره الأخير.

قال إنه سيفكك المطبعة وينتقل إلى شتورة. يعني أن الحرب قادمة لامحالة. بيروت على وشك انفجار هائل. بركان ظل يغلي في باطن الأرض سرعان ماينداح إلى الاعلى، سوف تنقسم بيروت إلى شطر مسيحي وآخر مسلم وأنا فيها من الشطر السني. لا أخشى أن أموت جوعا. فبيروت حاضنتي لاتفنى من الجوع. قد نرى مدنا تذبل لأنها لاتأكل..مدينة بصورة طفلة تعود إلى البائع وبيدها بيضة: عمي أمي تسلم عليك تقول هذه البيضة التي بعتنا إياها صغيرة لو أبدلتها بأكبر كي تكفيني أنا وإخوتي، وسمعت في عاصمة عن خمسة أطفال يشتركون بمثلث من جبنة كيري، وأطفال يجلسون أمام مطعم منتظرين بفارغ الصبر نفايات العظام لكن بيروت لاتموت جوعا.. إنه التسكع في الشوارع والأزقة والعبور من الحواجز والمشي على الالغام، يبقى العمل هو المحال... مع المقاومة. المنظمات كثيرة.. بندقية.. حراسة.. الوقوف عند حاجز.. اقتحام بيت.. إلقاء القبض على مشبوه. هل أفكر بالعمل في الحمراء؟ لكن ماذا أعمل؟ عاملا في بار؟ اللبنانيون يتقاتلون وأنا أسقيهم الخمر فمن يقدم لي الخمر؟ الجميع يتحدثون عن شارع الحمراء. ربما تتحول الشرقية إلى حطام. ويصبح المطار مثل المنخل. تصير الضاحية سيارة ملغومة محترقة وتبقى الحمراء ساحة خضراء لاتطالها النار.. رئة بيروت التي تتنفس منها. لا أريد أن اصبح مقاتلا. كفاني أني

قضيت خدمتي الإلزامية في كردستان.على جبل زوزك صعدت. ضباب ومطر. . هل أصاب رصاصي الهدف؟الظواهر تدل أن المقاومة تمردت على اتفاق الحكومة وخرجت من مخيماتها. الآن أصبحت مخيرا بين أن أتسكع في الشوارع أو أن اقصد أقرب مكتب. لايهمني إن كان مكتب فتح أو الشعبية. أي مكتب كان.

عليّ أن أحمي نفسي.

غادرت الجريدة قبل الواحدة بدقائق. وقصدت البيت مباشرة. ارتميت على السرير ولم تكن بي رغبة للطعام.بطالة وموت قادم.خلال دقائق كنت استسلم للنوم. . . .حلمت بالحروف وأشياء أخرى غريبة، في منتزه ما حيث الأضواء المعتمة الخضراء والمناضد المنتشرة تحت أشجار الليمون نساء جميلات عاريات الظهور يحضرن الحفل. يتخذن مواقعهن على الكراسي وثمة في الممر وجدت نفسي أقف كأنني نادل يلبي طلبات الزبائن فيقع بصري على قامة فارعة القوام نادت بأصبعها السبابة ودعتني نظرة عينيها أن أقدم..اقتربت منها تقودني المصابيح الخافتة وحينما وقفت أمام المنضدة ورفعت رأسها إلي اكتشفت أنها لينا الدغيمي!

لم أصب بالدهشة أمام جمالها، وتسريحتها الرائعة التي تحدت بها تسريحة ممثلات السينما في عقدي الخمسينيات والستينيات.ألم أقل لك أنك جميلة فوصفتني بالدجل. قالت لي بصوت رقيق إنها جاءت وفي نفسها البحث عن شاب وسيم سوف تلبي كل رغباته ويسعدها أن تنتظره هنا وما علي إلا أن أناديها حالما يأتي.هو أكثر وسامة من أي شاب آخر، رحت أتطلع إلى الباب من غير أن أعرف أو أعير أية التفاتة للأسماء لكني فوجئت بصاحب المطبعة وهو ينهض من كرسيه ليقول لي إن هناك تلبكا واختلاطا في الحروف يجب أن أعالجه ودس يده في جيبه.سلمني

مجموعة من الحروف كانت جميعها تشتبك مع حرف الحاء الذي كان أكبر من الجميع. سلسلة حروف متشابكة.. سألت نفسي هل يقصد الحروف العربية أم الأجنبية؟ وتكاسلت عن العودة.لم أتوجه إلى المطبعة بل ذهبت مباشرة إلى البيت وفي رغبة لأن أغسل الحروف بالماء لعل ذلك يساعدني على فصلها.. وجدتهن بانتظاري ولما يزل حروف الحاء بيدي.صرخت بصوت حاد:

سأفصلكن. سأفصلكن.. انتظرن!

كاد المنزل يغص بهن إذ تفرقن.حاوية الأزبال ممتلئة..حوض الغسيل.. سرير النوم.. الحمام.. المطبخ.. الطباخ الغازي.. حنفية الماء.. بعيدا ينط سيل منها فيشفط حقول الشعيبة ليشخص في المكان شجر سدر ويلتم ثانية يطلع نحو النخيل يقتلعه فينبت مكانه كافور طيب الريح ثم تعود الحروف في الوقت ذاته إلى بيروت. بعد المكالمة الهاتفية تصل إلي رسالة من والدي: أمك مشتاقة إليك. إذا ضاقت بك الحال تعال فكل شيء على مايرام.حروف الرسالة تختلط ببقية الحروف يضيع أثرها ماعلي إلا أن أفصل جميع تلك الحروف واعلقها بسلسلة مفاتيح حرف الحاء التي مازالت بيدي لكني لم أفلح..كلما قبضت على مجموعة وجدت أخرى جديدة تحل محلها لا أعرف من أين تأتي الحروف غير أني تكاسلت فارتميت على السرير وكنت أتقلب في تلك اللحظة على جنبي الأيمن فأجد نفسي وحدي وقد تقحّمني هياج جارف وفحولة غير متناهية لاأشك قط في أنها فحولة كاذبة...تمنيت في تلك اللحظة أن تكون نريمان جنبي أو نوليا.هؤلاء عائلتي. ألم تقل نريمان ابق معنا أفضل لك! هناك امرأة أريد أن أعريها وإن كانت امرأة رجلا مثل لينا. أية منهن لايهم.

فقط أريد أن أثبت فحولتي!

الاثنين 29/ 1/ 1976

كدت أتحسس بعينيّ جسدها عاريا من الثياب وقد اتخذت مكاني على كرسي عال مجاور لدكة المقصف في محاولة لأن أكون قريبا منها ما استطعت..عادت بي الفكرة إلى عجزي البارحة.لاشيء ينقصني .أستطيع في أية لحظة أن أثبت فحولتي، ولعلّ المحاولة معها تعيد إليّ الثقة برجولتي.أنا ونريمان أصدقاء، كلتاهما تخرج مع أيّ كان. لاأظنّ أنّها تنزعج..حالي كالآخرين.قلت بهمس وأنا أتلفت كاللص:

- تذهبين معي حالما تفرغين من عملك؟

- آسفة "ثمّ بتمنع مع ابتسامة" : مرتبطة بعمل هذه الليلة.

لم أعلّق وعدت إلى كأسي من جديد.أمور كثيرة تدور من حولي فلا أفهمها.نريمان تقبل ونوليا ترفض، لينا تمتنع سواء وقعت الحرب أم لم تقع أهناك من سبب؟ أين أمضي بل كيف يصبح المقصف. أرغب أن أتحدث مباشرة معها. لماذا ترفضني. تقبل كل الرجال وترفضني. مسألة رجولة وكرامة. وشوشة ما تختلط، تنهكني. ماعادت الموسيقى القديمة العارية عن صوت المغني تضطرب في رأسي. أتلك فيروز تغني عن المركب والبحر أم أم كلثوم.لقد سقطت نظريتي القديمة حول المومسات.من قبل آليت ألا ألمس امرأة تبيع جسدها. كم كنت ساذجا حقا!أليست نوليا مومسا فلم أودها. رغبتي إليها تطغى على خوفي.أين هذا القوام

الساحر الاسمر من جسد لينا.أنا بانتظار أن أفقد رجليَّ.رفعت يدي أطلب كأسا آخر:

- كم تطلبين لقاء...

فنظرت إلي بحنق وسرعان ماانقلب غضبها إلى ابتسامة هادئة، قالت كأنها تخاطب طفلا:

- لاتشرب أكثر!

- أنا أتكلم جادا!

بقيت صامتة تتطلع في وجهي لحظات:

- كم تقدر سعري؟

- لك ماتشائين خمسين مائة؟

أجابت بلهجة فيها الكثير من الرقة والحنان:

- لكنك عندي لاتقدر بثمن!

أسطوانة قديمة لا أفهمها. حكمة من حكم القدماء. رددت بعجرفة:

- العالم كله لايساوي ليرة تخيلي هذا الكون بما فيه من شمس وأرض ومجرات لايساوي ليرة "راحت شفتاي ترتخيان" فكيف وأنا ذرة حقيرة منه لا أقَدّر بثمن!

- أتحب أن تسمع أغنية عراقية؟

وقبل أن تنتظر ردي ذهبت إلى الآلة فتهادى صوت قديم كدت أنساه من زمن بعيد:

عمي يابياع الورد

كلي الورد بيش

ورجعت إليَّ بخفة فهتفت أعماقي:

- هذه هي الأغنية التي سمعتها أول يوم جئت إلى المقصف ويبدو أني تذكرتها الآن.

لكن تهادى إلى سمعي نغم ما لم أتبينه ثم انتبهت إلى أنه جرس التلفون :

- عن إذنك أرد على الهاتف.

انصرفت إلى طرف المنصة القريب من الباب الخارجي حيث محصلة النقود والهاتف.تحدثت بضع دقائق وأطالت قليلا في الحديث وبقيت في مكانها ترد على طلبات الزبائن أو تدلف إلى المطبخ تنبه الطباخة الفلبينية وتحث النادل إلى مراعاة ماينقص من مقبلات وطعام. في هذه الاثناء أطل شاب في الثلاثين من عمره عملاق ذو عضلات بارزة يرتدي قميصا نصف كم. وقف عند المنصة وانسجم معها في حديث بدا لي أنه خاص.لم يلتفت العملاق إلي. وقتها ذهبت بي الظنون بعيدا. فاتني أنها استقبلت مكالمة حين كانت تتحدث معي ولو أرادت بي شرا لذهبت إلى التلفون وبادرت بالاتصال. كنت أوغل في أوهامي، وأحس أن رجليَّ بدأتا تتنملان وتخدران. في بيروت تفقد رجليك فتشعر أنك يجب أن تنام لتستعيدهما بعدئذٍ أما في مكان آخر. . . في مثل هذا الموقف علي أن أخلق عدوا لي وألعق هزيمتي. الحق إن المومسات هن اللائي أعرضن عني. هاهي واحدة منهن تعاشر الكويتي واللبناني والمصري والسوري والخليجي وترفضني أنا فمن أكون ؟

وجدت أن من الأفضل لي أن أغادر!

الثلاثاء 30/ 1 / 1976

قابلتني نريمان بوجه متجهم.

لم أكن أتوقّع زيارتها، فقد عدت الساعة الثالثة من العمل.كنت في الحمام.. حين سمعت الطرقات خرجت متلفعا بالمنشفة.لاحت لي علامة سخط ترتسم على وجهها، وحين عدت إليها فاجأتني لهجتها الخشنة، ونبرة صوتها الحادة:

- سألت نوليا الذهاب معك البارحة أليس كذلك؟

هل أقول إني أردت شهادة لإثبات رجولتي التي خانتني قبل ليلتين، فتدرك أن الصمت يدينني:

- هكذا إذاً !

- لكنها تذهب مع أيّ زبون.

- أرجو ألّا تعقد الأمور.

- قد يكون إلحاحي مجرد عناد لأنها تقبل الجميع وترفضني " ولم أجد بدا من التنازل" قد أتحرر معها من حياء رافقني فأستعيد. . .

فعبر وجهها عن نفاد صبر وقلق:

- قلت أرجوك!

- أعدك بذلك.

- عدني أيضا ألا تشرب كثيرا!

أنا نفسي لا أدري لِمَ أشرب. هل أصبحت مدمنا؟ كنت قبل

عثوري على المقصف الملكي أشرب فقط في عطلة نهاية الاسبوع. ليلة الأحد أذهب إلى أي بار وأحيانا في الشقة.لم تكن الخمرة لتشكل لي عقدة قبل الهجرة.شربناها في كردستان داخل المواضع. رحنا نهرب بها من الموت فحلقت بنا بعيدا عن أجواء الرعب.كان الكاكا الحاج عثمان صاحب محطة البنزين عند تقاطع زوزك وهندرين يبيعنا عرقا يعمله في البيت من الرز فماذا أصنع في بيروت حيث يلوح الموت ولخمرة لبنان طعم آخر:

- سأحاول!" استدركت"

- هذا أمر يمكن أن تتجاوزه والوقت أمامك طويل.هل تعدني؟

- نعم.

وبلهجة آمرة:

- أبسط يدك؟

ماذا؟ هل تراني مثلما رأيت لينا، أو تقرأ كفي الذي قرأته لي ذات يوم في ساحة أم البروم بصَارة بدوية حدثتني عن عن طول العمر وخط الزواج وسفر بعيد:

- أراك تتصرفين مثلما تصرفت مع غيرك!

فلاح بعض القلق والارتباك على جبينها:

- كيف؟ فتناولت يدها وطلبت أن تتبعني إلى المطبخ:

- أنظري مازالت منفضة السجائر كما هي ولأكن صريحا أنا كسول.

فدفعها فضول غطى على غضب كاد يتطاير من عينيها أكثر من انزعاج لاح عليهما:

- متى حدث ذلك؟

- وما يهم الوقت؟!

- مجرد حب استطلاع!

- قبل أسبوعين!

- عجيب أسبوعان ولم ترم محتويات السفضة؟

قلت لك إني كسول!

فتجاهلت عبارتي الأخيرة:

- كم دفعت؟

- لاشيء ولم يحدث الذي في بالك!

تأملت مليا وترددت ثم قالت:

- تقصد حدث لك..

- لا أبدا.. أتعرفين رفيقة ذات مركز مهم في حزب الشغيلة اسمها لينا الدغيمي تعاني من عرج خفيف برجلها اليمنى؟

- لا لم أسمع بهذا الاسم من قبل " وأضافت وهي تلتفت إلى الجريدة على المنضدة دون أن تكلف نفسها عناء تصفحها " في لبنان الأحزاب كثيرة والمسؤولون كثر يصعب تذكرهم.

- ياسيدتي جاءت إلى المطبعة لإخراج الجريدة هذه التي أمامك وفي يوم السبت كنت مستلقيا على السرير فسمعت طرقات على الباب وإذا بها هي توزع الجريدة على البيوت.

ضحكت من أعماقها :

- حمار شغل بلاش!

- شيء من هذا القبيل.

- يعني لم تخبرها بعنوانك!

- أبدا بل هي التي أعطتني بطاقة بعنوان مكتبهم!

- هل هي جميلة!

- حاولت ألا أكشف جميع أوراقي وأحجمت عن أن أذكر محاولتي استدراج لينا إلى السرير. هل أقول إن امرأة أخرى غير أختها نوليا ترفضني، وإحساس واضح وضوح الشمس يتلجلج في أعماقي عن بنت ليل تستلطفني أكثر من غيري وتمتنع أن تأخذ مني أجرا:

- أبدا والله رجل... سلوكها وكل مافيها.. هل أنام مع رجل مثلي؟

وعادت تلقي نظرة من بعيد على الجريدة:

- هكذا هن الشيوعيات مسترجلات دائما يحاولن أن يلغين أنوثتهن!

عندئذ بسطت ثانية يدي:

- نعم قولي ماشئت ماذا ترين؟

- أنظر رجفة خفيفة تعتري يدك مجرد أن تبقيها لحظات مبسوطة أمامك إنتبه شغلك يعتمد على يدك. حفر الزنكغراف والحروف وعمل الجريدة. كيف تستطيع أن تعمل؟

فقلت يائسا:

- غدا تندلع الحرب فأفقد العمل!

- لن تنتهي الدنيا إذا اندلعت أي حرب.

- الغريب أني هربت من القتل فوجدته أمامي.

- لكل حادث حديث!

وبعد فترة صمت:

- سأمرّ عليك السبت فأصحبك إلى الغطس. " واضافت

وهي تشير بإصبعها محذرة" لا تشرب قطرة خمر واحدة... ممنوع...هذه هي شروط رياضة الغطس والمهم أن تكرع كثيرا من الماء. حاول أن تشرب الماء في الصباح قبل حضوري إليك.

- سأفعل ذلك!

- واحسب حساب الأحد ستتغدى عندنا في البيت.

احتضنتها معبرا لها عن شكري.. .بضع دقائق استدعيت نولينا ولينا معا كنت هذه المرّة آخذها وأنجح... صورتان اندمجتا في خيالي نريمان ذات الأنوثة المتفجرة ولينا الخشنة المسترجلة. لم أشك في آهاتها وتأوهها. كانت في غاية الرقة والانفعال، وكنت في غاية السعادة لشعوري بالنجاح.

السبت 3/ 2/ 1976

قضيت الليلة في البيت.

نريمان تريدني صاحيا وتفرض علي طقوسا لاأتجاوزها. هدوء واسترخاء..لاكحول.. لاأرق هي طقوس الغطس، وأنا كطفل أطالع أشياء جديدة فأبهر بها.كان بإمكاني أن أذهب إلى المقصف وأتناول العشاء هناك غير أن الفكرة تلاشت من خيالي تماما كأني لا أريد أن أدخل هذا المكان صاحيا وأخرج منه مثلما دخلت.ارتحت كثيرا لاهتمام نريمان بي وتفضيلها لي على الآخرين.أقنعت نفسي أني وجدت صديقا في بلاد الغربة يمكن أن استند إليه ورغم الشعور بالراحة فقد اجتاحتني موجة من الضجر لاحنينا للشرب بل لأني لم أتقبل فكرة أن أظل بقية اليوم في البيت مثل السجين. لقد قضيت النهار في المطبعة، وتوقعت حضور لينا فها هي ثلاثة أسابيع تمر وما من خبر عن العدد الأول وعندما سألت صاحب الجريدة عنها أجابني:

- يبدو أنهم اكتفوا بالعدد التجريبي صفر أو أفلسوا.

- أو اشتروا مطبعة!

- لاأظن وإلا لطالعتنا بالجريدة الرفيقة ساعية البريد!

خرجت من المطبعة متأبطا حزمة من الصحف وبعض النشرات التي تصفحها السيد فاروق الأشقر وركنها جانبا.. كانت جميعها تدفع إلى جو مشحون بالحماسة والريبة.كل يشكك بالآخر.. وكل صحيفة تدعو للثأر والانتقام. أي خبر صغير..

صفحات عمرها أقصر من الفراشة.. يوم واحد تمر بعيوننا تحرض على القتل أخيرا أفرشها على منضدة الطعام بدل الشرشف.. أي انتقام تحمله صحيفة عمرها أربع وعشرون ساعة... أية شاردة وواردة.. سأغطس غدا.. والجرائد تبحث عن انتقام..ولا أحد يهتم بوجودي تحت الماء.. ياترى كيف هو شكل البحر من الداخل.. كيف سيكون شكلي في بدلة الغوص. اللواء البيروتية تهاجم...السفير تدعو للتهدئة... كمال جنبلاط يحذر الشرقية والقوى الرجعية من مغامرة.. المسلمون على وشك قول كلمة الفصل في لبنان..شباب الكتائب يستعرضون عضلاتهم..النداء تدعو جميع الدول اليسارية إلى الوقوف مع القوى الوطنية... الاتحاد السوفيتي يحذر إسرائيل من التدخل في النزاع اللبناني.. كوبا الرئيس كاسترو.. الفلسطينيون في بلادنا.. لاللتجنيس.. النهار تنبش التاريخ. والشرق تتحدث عن علاقات سكان بيروت وتستنبط أخبارا صغيرة عن حوادث ذبح ومجازر جرت قبل قرن.. الزمن الماضي.. اليوم.. إسرائيل.. شرق بيروت.. الضاحية.. الحماس المشحون بالانتقام وتحريض الصحافة. لبنان تغلي قبل أن أغطس، وأنا لاأعرف بعدُ طعم البحر، فكيف يكون شط العرب الصغير محتدما بالكواسج الفاتكة، وحلمي لايخيب. أدركت سر الحروف المتشابكة في حلم سابق وحرف الحاء الحلقة.كيف نسيت أن الحرب تبدأ بحرف الحاء. والإلهات الثلاث أسماؤهن تخلو منه. أين كان حرف النون عني في الحلم.. نريمان.. نوليا.. لينا أكاد أختنق من عنف الجرائد، فأستلقي على الفراش. أضع المذياع على بطني. ألف الموجة فتأتي موجات أعنف وأقسى: الرئيس فرنجية يتمسك بالحكم ويعلن استعداده لكل طارىء.. الشرقية سوف تعيش إلى الأبد...الشيخ الجميل يبعث رسالة خاصة إلى باريس. المبردة في الطريق.. المؤارنة بقايا الصليبيين في لبنان..

صوت وصورة، ماأقرأه أدهى وما أسمعه أمر.صوت لبنان الرسمي يضيع. لاأحد يرى ويسمع مع أن الجميع يتكلم. من يسمع من ومن ينظر إلى من، وبعض الناس لايهمهم هذا أم ذاك يذهبون إلى المطاعم والبارات. يسكرون ويرقصون.وحدي أشعر بالاختناق.أقاوم الصحو حتى لو فكرت بالسكر فإنني لا أرغب أن أسكر في أي بار كان وتعاف نفسي السكر في الشقة. المقصف الملكي هو الذي يبعث النشوة في رأسي. أصبحت الخمرة ترتيلة لا أقدر أن أؤديها إلا في معبد يدعى المقصف الملكي هناك أجلس على الدكة أو أختار كرسيا في زاوية خافتة ناعسة خدرة بالموسيقى وعيناي على نريمان ولينا.عالم بعيد عن بيروت والمطبعة والحروف.هذه الليلة أنا محروم منه لكن خاطرا عاجلا مر بذهني. لمحة عابرة أشارت إلي ان أتحرر من خوفي وقيود الصحافة وصخب المحطات فدفعتني إلى أن أنحي المذياع وأغادر السرير إلى مقر صوت الشغيلة، وماهي إلا دقائق وكنت في المكتب.التسريحة ذاتها، البنطال الكابوي، الحذاء.. السجارة.. هي هي لم تتغير. استقبلتني مرحبة فقلت:

- مرت ثلاثة أسابيع فقلت أجيء استفسر عنك!

- نحن نستقبل الآن آراء القراء في العدد التجريبي، ولدينا مقالات لأكثر من عدد.

واستفزني جو الصالة المشبع بدخان كثيف تراقص بعضه على هالة المصباح المتدلي من السقف ولفت انتباهي نقاش حاد بين العراقي وشاب لبناني وسيم الطلعة في العشرين من عمره، فغمزتني بصوت خافت:

- ابن بلدك أنتم العراقيين تتحدثون بانفعال!

- مثل المحطات والجرائد هنا!

- مايحدث حالة مؤقتة أو استثناء لايشكل قاعدة عامة كما هو الأمر عندكم!

فقلت على البديهة:

- ربما لأننا لانعرف المجاملة!

وغيرت مجرى الحديث:

- هل وجدت عملا؟

أجبت من غير تفكير:

- تقريبا

- في المطابع؟

- هل تعرفين محلا اسمه المقصف الملكي؟

- أين؟في الضاحية؟

- هناك في شارع جانبي يدعى عطفة الساقية يتفرع من الحمراء.

فالتفتت باتجاه الشابين اللذين توقفا عن النقاش وراحا يستعدان لجولة شطرنج:

- رفيق فرانس هل تعرف مقصفا في الحمراء يدعى المقصف الملكي؟

قال بلا مبالاة:

- معظم المحلات هناك تمارس الدعارة!

ونادى العراقي ساخرا:

- كحاب والله كحاب يعني بلهجتنا قحاب!

ثم رفع صوته وراح يقلد أغنية شائعة:

- كحاب والله كحاب

وانتبهت إلى ضيق لاح على وجهي:

- هذه كلمات عادية قحاب.. فرج.. عضو.. قواد..أير يقول عنها الرفيق لينين إن البرجوازية هي التي جعلت الناس يخجلون من النطق بها علناً لمآرب تخص البرجوازيين أنفسهم!

هذه امرأة تختلف عن بنات حواء. أمي كانت تخجل من أن تنطق بكلمة قبيحة أمام أبي وأجدني أمام امرأة تتلاعب بكلمات بذيئة وتدعوني إلى القتل:

- الأمر لم يحسم بعد ولا أعرف أن كنت سأباشر العمل أم لا.

أشعلت سجارة فتصاعد دخان يتراقص تحت قبعة المصباح، وعقبت ممازحا:

- من ير الدخان يظنها حربا مصغرة قبل اندلاع الحرب الكبيرة!

- من علامات المناضلين إدمان الشاي والدخان.

فنهضت أشد على يدها، وبادرتني:

- لاتقلق حين تندلع الحرب تستطيع أن تأتي إلينا نقبلك مثل أي مقاتل أو أممي!

مرة ثانية الرشاشة والقتل والعنف. كردستان والجبل. لابد من أن أقتُل أو أقتَل لكني حين دخلت بيروت أول يوم ورأيت ألفة الناس ونعومتهم قلت نحن وحوش إذا قارنا أنفسنا بهم:

- أشكرك!

- المنطقة هنا تحت سيطرتنا نحن وجماعة قليلات في حالة حدوث أي طارىء وربما سيكسر الفلسطينيون الحظر فيخرجون ليغطوا جميع مناطق بيروت.

فأفلت يدي وأوغلت في ممازحة ثقيلة:

- يعني سيكون قليلات القومي الرجعي معكم في خندق واحدة!

فهزت كتفها قائلة:

- تحالف مرحلي!

ورافقتني إلى الباب.

الأحد 4/ 2/ 1976

اليوم هربت من همومي إلى الماء.

زورق قاده كابتن لبناني من نادي الغوص بشوش الوجه في الخمسين من عمره يدعى سليم إلى مكان غير بعيد عن الشاطيء:

هنا عمي سليم. فتوقف الزورق والتفت إلي:

لايهمني العمق لكنك تغطس أول مرة.. هنا المكان لايزيد عن ثلاثين مترا.

بدلتان في أسفل الزورق، وعلبتا أوكسجين، فأسأل مثل الطفل:

إشتريتهما؟

بدلتي ابتعتها من لندن هي والأخرى الصيفية أما هذه فهي إيجار من نادي الغوص!

كل شيء متألق من حولي. رائد فضاء يحلق بعالم جديد لم أره إلا في الخيال، فتراودني ثانية روح الطفل:

بكم ابتعتها؟

هذه بخمسمائة باون والصيفية أرخص منها.

ساعدتني قبل أن ترتدي عدّتها.لاادري لم اقتحمت دنيا الطفولة ذاكرتي الآن.أمي ساعدتني في ارتداء ملابسي إلى الصف الرابع الإبتدائي.. وأرى طفلا يصعد نخلة إلى أعلاها فينط في النهر الصغير وهو يزعق مثل طرزان.كمان.. كمان.. لفحة " نهر

خوزٌ تجتاح وجهي مثقلة بالطين، وأصابعي تنغرز في القعر. أينا أطول نفسا. عرفت الطين والقواقع وأعشاب النهر، وصادقت السلنت والشنبلان.طفولة رائعة..حرية واسعة بين البساتين والنخيل. السواقي تجري بين أرجلنا وأهلنا لايمنعون عنا أي شيء مع ذلك نشعر بالحرمان فنحس أن هناك شيئا ما ينقصنا شيء أجده بصحبة نريمان والساحل والبحر والأسئلة تلح علي:

- نوليا والوالدة ماذا يحبان ياترى؟

قالت إنّهما لايرغبان في الغطس أمها تفضّل ركوب الدراجة ونوليا تمارس رياضة الجري.أمّا منتهى المتعة عندها فحين تصطاد الأخطبوط:

- هل أكلته من قبل؟

- كلا.

- تستطيع أن تتذوّقه معي .

معي امرأة تساعدني على أن أكون من مخلوقات البحر. مخلوقا مفترسا ذا طبع آخر.من قبل رأيت العدة وحافظة الأوكسجين ولم أكن أتصور أنها بهذا الثقل. ظننتني أحمل جبلا أو أنوء بعبء ثقيل يكاد يمنعني من التقاط أنفاسي.لمحت من بعيد غواصي اللؤلؤ القدامى وهم يقاومون الماء بأنفاسهم..خلال لحظات أصبحت ضفدعا أو سمكة.. تغير شكلي.. أنا لست في الأرض بل أحلق فوق السماوات فأرى القمر والنجوم والمجرات كل منها باسطة ذراعيها لي.. هنا لعلني أجد جنة عدن المفقودة..ربما أكون قرشا كاسرا..هبطت خلفها.. وبقيت يدها ملتصقة بذراعي.أنبوبة الأوكسجين تثقل عليّ تنفسي.بعض الأسماك قريبة منّي.لاتهرب كأنّها تعرفني.أبصرت أسماكا ملونة وأعشابا وقيما يشبه الطاق دخلنا حيث تجمعت أسفل جسدينا مربعات أرجوانيّة.جسدي خفيف.كلّ

شيء واضح أمامي.أشجار كالصفصاف والصنوبر.أسماك ملونة تعوم بين شجر يشبه الأثل.مخلوقات تزيح الرمل لتدلف تحته. هو عالم الطفولة يجتاحني في كل لحظة فلا فرق في أن نهبط إلى قاع البحر أو نصعد إلى السماء.ترى أين أختفي إذا اندلعت الحرب؟وعن مسافة لاحت لي حشائش وحقول من سفانا وكان في الحفر مخلوقات تتقلص وتنبسط فتبدو وكأنها عيون جاحظة من محاجرها.صخور كمخ الإنسان تدبّ عليها مخلوقات أشبه بالحيات.هاهو البحر يستقبلني باحتفالية قلما أجدها على البرّ.خلف تلك المشاهد جثمت مستعمرة من مستعمرات الأخطبوط.شكت بالرمح أخطبوطا وتابعتُ مثلها، أرجل سوداء تلوذ بالوحل فتتعقبها حربة..أقلدها، ووددت لو بقيت في الماء أعيش تائها مع الأعماق البعيدة الملونة لكن من لي بحورية بحر تمنحني زيتا أطلي به جسدي فلاأخرج من الماء مدى الحياة.كانت تصعد بي إلى الأعلى حتّى تلمست حافة الزورق ثم يد الكابتن سليم تلتقطنا. وهو يسأل:

- كيف كان معك!

- عال!

كنا نجلس ملتصقين ونحن نصغي إلى البحر كأنه يحدثنا عن رحلتنا القصيرة معه.قالت:

- هل أعجبك الغوص؟

ضغطت على يدها مؤكدا، فأردفت:

- هذه المرة تمرين لك إذ ليس من المعقول أن تبقى خلال الغطسة الأولى فترة أطول في المرة القادمة سأزيد الوقت.

جلسنا على سطح الزورق وكان العم سليم في الداخل خلف

المقود رحت أصغي إليها، ولمّا تزل يدي بيدها، وعيناي معلقتان بالبحر، وشفتاي تتمتمان:

لعل الحرب لاتندلع!

كانت تتطلع بعيني طويلا كأنها تبحث عن جواب ضائع والزورق يمخر وجه الماء الساكن متجها إلى الساحل!

الأربعاء 16/ 2/ 1976

جنبي على السرير.

أناملها تداعب شعري.كانت عيناها تتمعنان بوجهي. لم يعد بيني وبينها تحفظ أو فواصل.التوجس تلاشى. تجرأت أن أعطيها نسخة المفتاح الثانية، فرأت في شقتي الصغيرة بيتها ويبدو أني نمت نوما عميقا بعد عمل طويل شاق. . .فقد اشتغلت في تفكيك المطبعة ولملمة الأثاث إلى الثالثة، وحين عدت ارتميت على السرير.فتحت عينيّ بعد ساعة فشعرت بالجوع.

- أحضرت أخطبوطا من التي اصطدناها.

- لقد نمت نوما عميقا نفض التعب عن جسدي.

رائحة الأخطبوط المطبوخ بالليمون والفطر تلفح أنفي وتستفز عبثا ذاكرتي:

- كنت هادئا ماعدا همهمة مكتومة.

ذكرتني بحلم مشوش نسيته، في أثناء ذلك ثقلت صفحة وجهي، شيء يشبه الجبل عجزت أن أزحزحه، ولم أتذكره كحلمٍ تجمعت فيه حولي الحروف:

- كابوس.

- لكنك عدت إلى هدوئك بعد لحظات.

- أظنني صرخت.

سمعت همهمة تصدر عنك همهمة خفيفة.

كم وددت لو يسمع الصاحون صراخي فيهرعون إلي ينتشلونني من حلم بغيض. كوابيس تراودني بين فترات متباعدة. اريد أن أنهزم فيقيد رجلي كساح ويثقل وجهي خدر لكن صرخاتي العالية تصبح مجرد همهمات ياترى كم حلما مبهما تذكرت وكم حلما ضاع مني :

- أتحبه؟

- لم أجربه من قبل.

تناولت قطعة من أحد الأرجل ودستها في فمي:

- جرب!

- فعلا لذيذ على الرغم من شكله المخيف.

- ليس بالضرورة أن يكون كل قبيح غير لذيذ!

- من كثرة ماقرأنا عن الاخطبوط وسمعنا عنه كرهناه!

فقالت ضاحكة:

- أظن أن كل شيء عندكم في العراق معقد.

ماذا أقول عن أشياء قبيحة قد تكون لذيذة. الوزغ... الفئران.. لعل الجراد الهائل الهاب على مزارع البصرة منتصف الخمسينيات كان قبيحا أما والدتي فإنها جمعت أعدادا كبيرة منه سلقتها وعبأتها في أكياس كبيرة. كنت أنهمك بالتهامه.جرادة ليست ذات جناح، برأس وعينين أتلذذ بالتحديق فيهما مازال طعمها في فمي:

- لذلك نحن العراقيين في لبنان على الرغم من طبول الحرب التي تقرع!

- ماذا تقول في الضفادع هل جربتها من قبل؟

- أوو كلا أرجوك!

- منظرها قبيح وطعمها لذيذ إذا أحببت أن تتناولها معي يوما ما.

- كيف تأكلونها؟

ليس كلها الفخذان فقط.

- ثم وهي تضم شفتيها وتهز رأسها بشغف:

- هناك أكلات كثيرة مفيدة ولذيذة المحار... القواقع... السرطان البحري أنا لاأحب اللحوم كثيرا وأهوى مخلوقات البحر والخضار!

سرطان البحر "أبو الجنيب" كنت أصطاده وأستل أحشاءه أصيد بها الأسماك، فتبقى رائحته العفنة على أصابعي وصفرة بطنه على راحة يدي.. أغير الموضوع كأنني أهرب من شيء لاأعرفه ولا أرغب في معرفته ونريمان تحولني إلى وحش ناعم وتكاد تروضني إلى مخلوق يعاف كل شيء ويفترس أحشاء البحر:

- هل نغطس ثانية يوم الأحد؟

- أراك أغرمت بالبحر؟

- شعرت كما لو كنت في الفضاء.

- هذا الأحد لا لأننا سنتناول الطعام مع ماما.

قالت ذلك وبدأت تجمع بقايا الطعام ثم تلف الجريدة، وكنت في تلك اللحظة أفكر بنوع الهدية التي أقدمها لأمها الأحد القادم.

الأحد 20/ 2/ 1976

كانت معي حزمة ورد...

ورد ذهبيّ تذوقت رائحته قبل أن تمتد يدي به إليها..

الحق بهرني مارأيته من أثاث ترتيبه يدلّ على ذوق رفيع، وحانت مني التفاتة أوّل مادخلت فلمحت صورة السيد بيير الرجل الخمسيني ذي الوجه الطويل والشعر المفروق من هامة الرأس ثمّ شغلني عن الصورة دخول سيدة البيت أم نريمان ونوليا.نهضت أشدّ على يدها وأقدم لها باقة الورد.كنت أقابل امرأة متهدمة تماما.وجه ذو تجاعيد، سحنة متعبة.بقايا امرأة تعاند الزمن على الرغم من طقوس الرفاهية التي تعيشها أمّا ابتسامتها الطيبة فقد طفت على موجة التعب والإرهاق اللذين حاكتهما السنين في ملامحها.بعد دقائق زالت الكلفة بيننا.أصبحنا صديقين كأنّ أحدنا يعرف الآخر منذ زمن طويل.امرأة مازالت تفخر بالماضي.لاترضخ للزمن.ليس من اللائق أن أسألها عن المأساة كونها كانت خارج البلد يوم 14 تمّوز، ولم أرد أن أثير شجونها.كبتّ فضولي، وكانت تسبقني :

– منذ متى جئت من العراق؟

– سنة تقريبا ألم تخبرك نريمان؟

أظن أنها أخبرتني وربما نسيت.

فوجدتها فسحت لفضولي مجالا واسعا :

– ألم تفكري بزيارة العراق؟

وردت نريمان عن أمها:

- ليس لنا أحد هناك

فقالت الأم شبه معترضة:

- حتى وإن كان لك أعمام ولي أهل الجميع نسونا ونسيناهم!

كانت أم نريمان تتمعن بوجهي كأنها تعرفني منذ أمد بعيد، وكنت متحفظا في كلامي.بعد الغداء مباشرة جلبت نريمان ألبوم الصور ووضعته في حضن أمها وهي تقول:

- سترى ماما وهي صبية.

- من حسن حظي أني احتفظت بكثير من الصور الخاصة معي، والبعض وصل إليّ من صديقات بعد أن مرت أشهر وهدأت الأوضاع.

لزمت الصمت وعقبت نريمان:

- يبدو أن العراق كان أجمل حينذاك.

وأتحت لنفسي فرصة الحديث:

- ليس العراق وحده فمن يشاهد الأفلام القديمة يدرك أنّ البلدان العربية كانت في تلك الفترة أجمل، أنظري إلى القاهرة أيام الرومانسية الآن فوضى وبناء عشوائي، ونفوس كثيرة...

وفيما يشبه النائم لاح لي ذلك الخدر اللذيذ القادم من ثلاثينيات القرن:

- أنظر كم هي جميلة أمي!

رأيتها وهي طفلة بين أبيها وأمها، وهي صبية في مراهقتها وشبابها..فتاة متوسطة الطول رائعة الملامح عريضة الوجه.الملك فيصل الأوّل نفسه حملها وهي طفلة.كانت عيناي تنتقلان بين الصور

وتتابعان إصبعها التي توقّفت عند صورة تجمعها هي وزوجها مع نوري السعيد، صور لها مع أبيها وزوجها في آسيا وأوروبا.ومعه حين كان ملحقا ثقافيا في طوكيو امرأة رأت كلّ العالم. الصبا... الشباب... الألق على الورق... أمامي فقط الكهولة والذكرى، فلجأت إليها بالسؤال:

- حضرتك رأيت مدنا كثيرة ألم تكن في السابق أجمل؟

- بالتأكيد نحن الآن في بيروت نهاية الخمسينيات كانت أجمل!

وتوقف إصبع نريمان عند صورة لفتاة وهي تبتسم من دون أن تعلق، فانتبهت الأم وقالت :

- عزة أخت الملك غازي "ثم صمتت كأنما تستعين بذكرى ذات عبق خاص "كنت صديقتها الوحيدة التي أباحت لها بسرها قبل أن تهرب من قصر أبيها مع الطباخ اليوناني أنستاسيا الذي أحبته.

في بالي سخرية وأسف ألا تعد المسألة بعرفنا نحن الناس العاديين مسألة شرف. أمي دعت الله أن يرزقها بنتا وحمدتُ الله أن لاأحد يقول لي في حال اندلاع شجار :إذهب يا أخا القحبة.لاأدري ليس من حقي أن أعقب ولم يكن في ذهني أي تصور كوني أمام امرأة شجعت على ممارسة الخطيئة... حب وهرب:

- الحب لايعرف العقبات لو لم أساعدها لوجدت شخصا آخر.

وقالت نريمان:

- التقيناها مرتين في لندن وعمان.

وعقبت الأم وهي تقول بأسف:

كدت لاأعرفها تماما كانت قد تغيرت تماما..

فألح عليّ فضول لم أستطع مقاومته:

- وماذا عن زوجها اليوناني.

- أووه انفصلت عنه وبقيت في أوروبا سنين إلى أن شملها الملك حسين برعايته فاستقرت في الأردن!

عاودتني روح السخرية... ياجلالة الملك ياأخا القحبة ابنة ملك تفر، حفيدة ملوك وأنا أفر أنباء رائعة تحتاج إلى كأس.. هذيان يقودني إلى حقائق غريبة ملوك زناة مؤمنون كفرة كلنا هربنا فنلتقي من غير أن يعرف أحدنا الآخر، وقد انتشلتني الصور من أفكاري العدوانية لحظة أخرى:

- لي مع المرحوم البيير قبل ولادة نريمان.

"صمت لحظات، وتمعن "كان يأتي إلى العراق فيحل ضيفا عند الوزير رستم حيدر.

أمامي متحف ناطق.أحداث تتكلم وتاريخ.. شخص أليف.. امرأة وديعة مسالمة كانت كأنثى طاووس في عصرها الذهبي فجعلتني المدرسة والمجتمع وأهلي أكرهها.. ملك أم ملكة.. أم نريمان في عصرها الذهبي سيدة القصر تفتح لي بيتها وتتحدث معي عن بعض خفايا الأمس الجميلة صور كثيرة تتكدس من الماضي البعيد والقريب شخصيات معروفة.الأحد الماضي كنت في البحر، وهذا الأحد رحلت إلى واد جميل انبسط في لحظات أمام عينيّ، لم أسمع من قبل بفرار أخت ملك العراق وبين لحظة وأخرى تراودني فكرة عدوانية فألجم نفسي:

- لكل صورة قصة.

- لِمَ لاتملين علي مذكراتك من الممكن أن يدفع لك أحد الناشرين مبلغا لابأس به؟

فانبرت نريمان قائلة:

- كثيرا ما ألححت على أمي لكنها ترفض.

ردت بأسف:

- في ذكرياتي والصور الكثير من الحقائق الحلوة والكثير من الإساءة لشخصيات ماتزال حية إلى الآن..

فقاطعت نريمان باندفاعها السابق:

- انشري الحقائق الحلوة فقط.

فقالت بين الانزعاج والرفض:

- ذكر الحقائق الجميلة وحدها يمكن أن يكشف عن أمور قبيحة مثلما تذكرين النهار فإن ذكرك إياه وحده يستدعي تذكر الليل والحق وحده يذكّر بالباطل تلك سنة الحياة يابنتي!

ثم التفتت إلي، وقالت وهي تغلق الألبوم:

- لاتنس نحن ثلاث نساء وعلاقتنا جيدة مع كل الأطراف من مسلمين ومسيحيين داخل لبنان وخارجة حالتنا والحمد لله ميسورة فما قيمة كتاب مذكرات وصور!

وقالت نريمان:

- صحيح تذكرت ماهي الكلمة التي قلت لي أن اسأل أمي عنها؟

- ما الذي ذكرك بها الآن؟

- كلما أردت أن أتذكر أنساها!

- الطنطل!

فافتر ثغر الأم عن ابتسامة واسعة أقرب إلى ضحكة مكبوتة:

- الطنطل ذلك المخلوق الوهمي الذي يقطع الطريق على الناس في الخلاء عند الظلام!

وقلت مع نفسي:

بل يقطع الطريق على أي إنسان يمشي وحده فإما أن ينكحه أو يركب على ظهره فيحرث به الأرض حتى الصباح ورفعت نريمان حاجبيها كالشامتة أو المداعبة:

- إذاً انت تخاف من الوهم!

وصدر عن الأم احتجاج رزين:

- الإنسان في هذا العصر اصبح هو الطنطل!

الاثنين 6 / 3/ 1976

بدأ الوقت يطاردني. . .

اختلف الأمر في مكان العمل. قبل الظهر أكملت أنا والعامل في الطابق الأرضي تفكيك المطبعة والأثاث. كنت منهمكا في الشغل حين دخلت القبو لينا الدغيمي، فصعدت معها متأبطا بعض الألواح والمسودات والهيكل المعدني إلى خارج البناية حيث كانت سيارة صغيرة سوداء قديمة تقف بانتظارها عند الرصيف:

- لاتنقطع عن زيارتنا فقد نحتاج لخبرتك.

- إن شاء الله.

ردت باهتمام:

- بل إن شئت أنت.

فاستعذت بداخلي وقلت:

- لكل حادث حديث.

- هل تعرف استخدام السلاح؟

- ليس هناك من عراقي لايعرف السلاح.

حركت إصبعها السبابة كأنها تطلق النار:

- بنادق صيد العصافير.

أنا نفسي يحاصرني الضحك. . السخرية. . فإلهة الحرب تهزأ من الحرب في العراق حرب تكاد لاتبين ولايعرفها أحد. . إنا

واحد من شظاياها المنتشرة، ولعل الشظايا تتسع فيدرك العالم أن هناك حربا بين الجبل والسهل:

- الخدمة العسكرية عندنا إجبارية والذي يحدثك قضى ثلاث سنوات في كردستان!

- من أصول كردية؟

السؤال نفسه واجهني في المقصف ذات يوم.هنا الناس يسألون عن الدين والمذهب أنا بين امرأتين واحدة سألتني عن مذهبي والأخرى عن قوميتي:

- عربي بن عربي من الجنوب ربما يرجع نسبي إلى عنترة بن شداد أوسيف بن ذي يزن ولِـمَ لا فقد تكون شجرة العائلة ترجع إلى الخليفة عمر بن الخطاب!

- شيوعي؟

- ذهبت لأداء الخدمة الإلزامية فأصبحت الكلاشنكوف رفيقتي مدة سنتين، ولو لم أغادر العراق لرجعت إليها مثلما رجع رفاقي الآن!

- رائع يعني عندك موقف لاتريد أن تحارب الأكراد.

- بل قولي هربت من الموت. لاأريد أن أموت:

- أحيانا يكون الهرب من الموت موقفا نبيلا.

- طبعا أنا طول حياتي لم أر جبلا إلا في كردستان فلِمَ أذهب إلى هناك.

- المهم يمكن أن نقبلك صديقا للحزب تشارك الرفاق في الدوريات والحراسات ويمكننا أيضا أن نستفيد من خبرتك في الإخراج أو كتابة بعض التحقيقات.

هل أعود إلى أصلي؟

القتل! إنه إطلاق النار. أول مهنة مارستها محترفا! كان عملي مع والدي في محل الإنشاءات أو عند السيد عبد الحميد الحلفي من باب الهواية مهنة درت عليَّ مكافآت سخية وحفظتني من الفراغ. احتراف القتل مارسته للمرة الأولى في كردستان. السيد الآمر يقول إذا انهيتم خدمتكم الإلزامية فإن شهرا واحدا كل عام كاف للاحتفاظ بلياقتكم واستذكار دروس فن القتال واستعمال السلاح! لاتريدني الدولة أن أنسى.كردستان انفجرت بعد سفري بأشهر والشهر أصبح سنة ورفاقي لم يعودوا بعد إلى بيوتهم.. لن أرجع ولو بقيت في قلب النار يمكنني في بيروت أن أعايش الموت..أروضه..أهرب منه وقتما أشاء لكني لا أقترفه.. سيدتي لبنان بلد ناعم كالحرير والعراق خشن كصوف الماعز.خشن في كل شيء.. جو حار.. حكم قاس مثل الزمن، كيف أعود إلى نقطة البدء من جديد: الحرب أم أين تقف قدماي؟

الثلاثاء 7/ 3/ 1976

عدت عاطلا عن العمل!

من الآن فصاعدا علي أن أطرق الأبواب فأقبل بأي شغل، ومثل تاجر مفلس ينهمك في مراجعة أوراقه القديمة ألوذ برسالة وصلت إليَّ من أهلي قبل أكثر من أسبوع." ولدي العزيز إذا ضاق بك الحال ورأيت بيروت تشتعل عد إلينا.. البلد مليء بفرص العمل" يالللسخرية..الغرباء يبحثون عن أية وظيفة في العراق.. في الأزبال.. النفط...الزراعة... المواني.. المعامل.. المدارس.. في كل مكان يبحثوث أما أنا إذا عدت فقبل أن أجد عملا لابد من أن أصعد الجبل.. وقبل أن أصعد الجبل علي أن أبحث عن قرار عفو يسمح للهاربين بالعودة..من حسن حظي أني وجدت عملا في بيروت خلال بضعة أيام.وبيروت على صغرها في حالة السلم والحرب تستطيع أن تبتلع العالم كله من ضمنهم أنا:

- ماذا تفعل في لبنان؟ أنت مجنون العراق بلد الخير!

قالت ذلك والدتي باكية. أخي الأكبر معلمي في المدرسة الإبتدائية لايهمه أمر سفري مشغول بخطبة ابنه وشراء سيارة جديدة، قال كلمته وأشاح بوجهه عني:

- أنظر إلى أعداد المصريين والمغاربة والهنود أصبحنا نستقبل الأجانب والعرب أكثر من أهل الخليج وأنت تذهب إلى الخارج إنك تجري عكس التيار!

أخي الاصغر الطالب أعتاد أن يتابع حسابات أبي ولايهمه

أمري. أمي وحدها تعترض على السفر وأبي أظنه يكتب عن لسانها:

- دعيه يسافر ليبق في لبنان أسبوعا أسبوعين شهرا.. شهرين سيعود حالما تنتهي نقوده!

- أقول لكم بصراحة إذا وجدت عملا فلن أرجع.

أخوك الأكبر على حق ألم تسمع كلامه الأجانب يأتون إلى العراق للعمل وأنت تسافر ثمّ ماذا تعمل هناك بروفيسور في الجامعة الأمريكية؟ كل ماهنالك أنك أكملت المرحلة الثانوية فاشكر ليل نهار الحاج عبد الحميد الحلفي الذي تعلمت على يديه فن الطباعة!

قلت محتداً:

- الآن قانون العسكرية لايرحم. في السابق يعفى من العسكرية من يكمل الصف الخامس الثانوي، فوق كل ذلك خدمة احتياط كل سنة شهراً، وربما تُعلن حالة الطوارىء فنبقى في العسكرية إلى حيث...

قاطعتني والدتي:

- لابد أن تجد الحكومة حلا مع الأكراد!

أمي لاتعلم أن الأرنب يطاردني إلى حقل الألغام حيث تمدد جسد من غير ساقين مثل شجرة تكسرها من أسفل الجذع ريح عاتية، والرسالة القادمة من البصرة قبل أسبوع كانت آخر رسالة، هي الذكرى بعينها. أرجع أفضل لك.. الشغل موجود.. إشتغل معي في تجارة المواد الإنشائية، وصديقي يسألني بعد شهرين من دخولنا في حقل الألغام: هل دفنت قدميّ؟

- الرقم 554

- نعم سيدي

- أنت قوي البنية تستطيع حمل الجريح.

- أمرك سيدي!

- الرقم 553

- نعم سيدي

- أحمل الساقين ولنرجع من حيث أتينا انتبهوا اتبعوا آثاركم ولاتميلوا عنها قيد شعرة.

- أمرك سيدي

نحن الذين لانقرأ الغيب ينفجر فينا حقل ألغام تجتازه الدببة والسناجب والأرانب. يقول العراق بلد الخير والعمل. فهل أعمل من دون ساقين؟أحمل الساقين فأين أذهب بهما. دم على الحذاء العسكري وبقايا سروال خاكي. دم على أصابعي وفي كتفي تعلقت بندقية فكيف أعمل إذا مافقدت يدي. نعم يا أبي نعم يا أمي نعم سيدي.يمكن أن أجلس عند باب جامع الأمير أو في مقبرة الزبير أمدّ يدي طالبا صدقة.. لكن إذا فقدت يدي.. كيف..خالد جبار الجندي المكلف يقول أدعو لك في كل صلاة. اين دفنت رجليَّ؟أين أدفنهما ولامقبرة أمامي سوى قبر ولي جعله الأكراد مزارا فلم أغامر بالوصول إليه خشيةً من قناصٍ يختفي بين الصخور. أسفل الجبل عند كهف.. قرب النبع... جنب صف من أشجار الحور.. هنا في بيروت.. أدفن رجليّ في أية حانة وأهتف:دب دبيبها.. ياللسخرية من جميع الرسائل أنا أيضا ساقاي تخدران فتنفصلان عني لكني لاأحفر لهما فأدسهما مع حذاء وبقايا بنطلون.. الناس تسكر بعقولها وأنا بساقيّ..فقط وحده كان الأرنب يفاجؤني بصرخة حادة أتراجع من حدتها إلى الوراء فما أشعر إلا والحائط يسند ظهري والسكين تسقط من يدي!

- بسم الله الرحمن الرحيم لاتخف ياولدي!

بقيت صامتا من هول الصرخة.أتذكر اني كنت أرتدي جلابية وبرجلي نعلان:

- أنت ياولدي رجل من ظهر رجل ولو كان أبوك حاضراً أو أخوك الأكبر لما سألتك أن تذبح الأرنب. لايهم..السنة القادمة إن شاء الله. اثنا عشر عاما مازلت صغير السن. أنت رجل والله!

كانت والدتي تتشبث بأية حجة وأي حلم لتثنيني عن سفري.تظنني قادرا على كل شيء..أنا رجل مثل أبي.. السنة القادمة أذبح دجاجة وبعدها أرنبا.. أستطيع أن أحمل السكين وأقصد وكر الأرانب فاستل واحدا من أذنيه وأجز خلال لحظات رقبته..كان أجدادنا يتزوجون في هذه السن وبعد سنة تحبل نساؤهم. الأرنب يصرخ كطفل متوحش. أنسى أني أحمل سكينا..انفجار اللغم تحت قدمي. الجندي الرقم... يدفعني إلى الوراء.يطلق صرخة مدوية ثم ينقلب على جنبه كديك يتراقص من ضربة سكين.. دم والرجلان تستقران تحت جسد يصرخ. انا الآن أرتدي السروال الخاكي وقدماي مكبلتان بالحذاء العسكري الثقيل. لاحائط ورائي فتكاد البندقية تنزلق من على كتفي:

- لاتتعبي نفسك ليجرب السفر ويرى ألا بلد أفضل من العراق!

واليوم بالضبط فقدت عملي ولذت كالتاجر المفلس برسالة أمي.يبدو أني عرفت الدنيا متأخراً. للمرة الأولى أركب الطائرة. أشد الحزام. أرى صحفا كثيرة وأحزابا. منظمات لاتعد ولا تحصى. العالم مختلف جدا. مجتمع آخر ودنيا جميلة يزيدها رونقا وبهاء قلق تعايشه كل يوم، وقد خاب ظن أبي. صحيح أن العراق أصبح قبلة العالم في العمل غير أني بعد أيام من وصولي وجدت عملا في مطبعة وعندما اتصلت بأبي عبر الهاتف وأخبرته أني حصلت على

شغل وفي كلامي معنى واضح عن الغياب الدائم أجابني إن غيابي يجعل والدتي تموت موتا بطيئا فأجبته إن الأعمار بيد الله وإنها تستطيع زيارتي متى تشاء!

كانت تلك آخر رسالة وصلت إليَّ من البصرة!

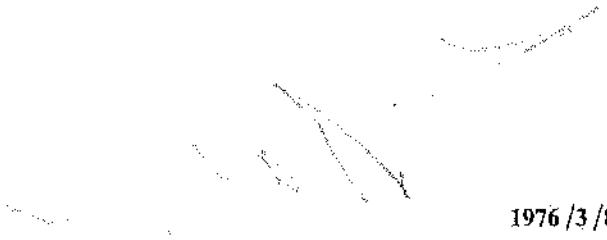

الأربعاء 8/ 3/ 1976

الوضع العام تلبد تماما.المنظمات عززت حضورها في الشوارع، والإذاعات الحزبية دخلت بمشاحنات. مهاترات ومذيعون منفعلون..طيران إسرائيلي يحلق فوق بيروت. أضغان قديمة تتمترس بين الحارات والطوائف..الجميع يبحث عن حجج..كل هدف يسير باتجاه عدواني وبيروت ما زالت تسهر وتسكر وتغنّي.وأنا أصبحت بلا عمل.لامجال أمامي -في حال اندلاع حرب- إلا أن أشتغل مقاتلا.لافرق سواء أمت أم أسِرت أو على الأقل أصبح معوقا. هي بيروت ذلك المنفى الجميل والسجن الشفاف..الموت فيها لايخيف.. وجه آخر لكردستان..الجبل يتراقص أمام عيني..أذكر أن موجة من الفزع انتابتني يوم عرفت أنني نُسِبت إلى فوج يقاتل في كردستان.. زوزك الجبل العظيم تصطدم بقمته غيوم كثيفة فيبدو مثل شيخ ذي عمة مهيب.. سكران.. الجبل الأجرد.. ظهر السمكة.. الموت له مرارة هناك، هذه بلدنا، أيها الرفاق: لبنان لنا. الغرباء في بيروت.. اطردوا الغرباء..لبنان إسفنجة الحضارة..صراخ يدعو للفناء وعظمة بيروت أنها تبشر بالموت لكنك لاتخشاه فيها. كدت أبكي وأنا أودع أهلي والسيد الحلفي يشد على يدي ويقول : قصة الشمال لن تنتهي كلنا خدمنا هناك أنا شخصيا أديت خدمتي منتصف الثلاثينيات في دهوك الله وحده هو الحافظ. لم أبك يوم توجهت إلى لبنان.. لاشيء يرعبك في بيروت.. فقط قلق وهناك احتمال الهجرة إلى الخارج بجوازك الحقيقي أو أي جواز سفر مزوّر.لكن إلى أين؟ وكيف؟ المال

ينقصني وبيني وبين الهرب عقبة النقود وتلك المحطات التي تشيع اليأس في نفسي فلا أجد بدا من أن أخرس أصواتها وأغادر الشقة فأدلف في الجو المشحون بالخيال والخدر!

طلبت كأسا وسألت نوليا؟

- ألن تأتي نريمان؟

- في البيت تعتني بأمي.

- ماذا؟هل من شيء؟

- بسبب الوضع المتوتر ارتفع السكر عندها.

قصدت الهاتف واتصلت بالبيت.أكدت نريمان أنّ حالة أمها تحسنت.طلبت مني أن أنتظرها ظهر الغد قلت لها إني فقدت العمل فبإمكانها أن تزورني أيّ وقت تشاء.وإذ رجعت إلى مكاني قرب الدكة وجدت رجلا بدينا أصلع يتحدث مع نوليا.ماذا يطلب غير لقاء ليلي عابر. نريمان معجبة بي. امرأة تمنح نفسها لسمار الليل فلِمَ تمتنع نوليا عني أنا الذي خرجت عن قسمي وسعيت إلى البغايا.رحت أغالط نفسي ثانية وأتشبث بحدسي السابق في أنهن هنا نظيفات. لامرض. لاسفلس. لاسيلان.يختلفن تماما عن غجر حي الطرب. . نساء عجيبات غريبات.واحدة تمنحك نفسها وأخرى تعاملك بجفاء، وثالثة مسترجلة تقول لك أنا أقوى منك.أين هن من البصرة ومن أمّي التي تنظر إلى أبي بعيني دجاجة. بالضبط كالدجاجة الأليفة التي تسكن دونما حراك تحت السكين. لم أر أبي يعاملها يوما بجفاء. لم يضربها أو يقسو عليها لكنها عاشت أليفة شأنها شأن النسوة في قريتنا، وفي هذه اللحظة حيث الجو الخافت المفعم برائحة السجائر والموسيقى واللا أمان تتهادى امرأة بظهرها المرمري الرائع أمامي تحتضن جميع الرجال وتصدني وحدي فأدرك

أني أكبت رغبة عارمة في امتلاكها..فأكرع مابقي من كأسي وأقف أمامها غير متردد.قلت:

- متى تغيرين رأيك؟

فالتهمتني بابتسامتها المعهودة وتساءلت كالبلهاء:

- حول أي شي؟

- الذهاب معي.

- أمصر أنت على ذلك؟

- نعم ألست كبقية خلق الله؟

واندفعت أناملها إلى صفحة خدي فقرصتها كأنها تخاطب طفلا:

- ستعرف ذلك فيما بعد

فطلبت قدحا آخر وتساءلت:

- متى؟

وهي تنصرف إلى ماكنة الأغاني:

- ربما غدا. أصبر قليلا ولاتلح كطفل!

عادت وهي تبتسم ابتسامة غامضة.وانطلقت مباشرة من الجهاز:

Who can take you far away

فتمتمت أسخر مني أظنها هي الأغنية التي علقت بذهني أول يوم دخلت فيه المقصف. كانت تلاحق بياع الورد..لابأس أن ينقلب ديمس روسز إلى حضيري مثلما انقلب جلالة الملك إلى شكل آخر وكما هي بيروت انفصلت كالبكتريا من نعومتها إلى العنف والدم فأصبحت شرقية وغربية.. حضيري ديمس.. الضاحية الأشرفية..

قواد ملك..وملك قواد.. أنا اسكر في حانة ولا أقدر على الخمرة في مكان آخر..حضيري يطل عليّ وهو مرتد قبعة الفس برسلي وديمس روسز يعدل العقال..

Who can take you

ورحت أحدق في الكاس منتظرا الخدر يدب إلى رجلي!

الثلاثاء 14/ 3/ 1976

صحوت الساعة الثامنة. أمامي وقت طويل مملّ.خرجت إلى الحمراء، اشتريت جريدة وآويت إلى مقهى في شارع فرعيّ.رحت أتناول قهوتي وأتحسس الجوّ العام.من جديد. الأخبار تنذر بوقوع كارثة، من قبل كنت أسمع التشنج والشد وأرى بعض ملامحه في العيون لكن كل شيء تغير تماما الآن..لم تعد القسمات والعيون بقادرة على أن تخفي الوعد والوعيد والإصرار على القتل..كنت أتبين في العيون رغبات الانتقام.ملامح الثأر. القسوة ترتسم على الوجوه ربما لو كنت أعيش في الشرقية لرأيت أكثر من ذلك...هذا الشعب الطيب انقلب كله إلى تنين.. تمساح.. الجمال.. الطيبة...الضيافة..الرقة.. الورود.. السياحة.. تحولت في لحظات إلى مشاهد قاسية تنطق بها الوجوه والعيون، ورغم مايحدث فلديّ أمل أن تطلّ نريمان فأسمع منها حديثا يسرّ..وفي غرفتي حينما كنت محاصرا مرة أخرى من الإذاعات المختلفة، سمعت طرقات على الباب ثمّ رأيتها تدخل. وضعت حقيبتها على المنضدة وسألتني من دون مقدمات:

- أسمعت الأخبار؟

- حدثيني عن صحة ماما أوّلا.

- بخير.السكر رجع إلى مستواه الطبيعيّ.

- أظن الجو العام أتعبها.

- بلا شك على الرغم من أني نصحتها أن تتجاهل الإذاعات ومحطات التلفزيون.

- هل تتوقعين اندلاع حرب؟

- هذا ماجئت أحدثك به.

- أرجو أنّ يكون ماأراه حلما بغيضا أو نكتة ليست ذات معنى.

من دون مقدمات مرة أخرى:

تعرف من أنا؟

بقيت ساكتا، فاندفعت:

امرأة هوى أليس كذلك؟ قلها لاتخجل. أنا لاأخجل منها قل قحبة.. يمكن أن يكون ذلك تاريخا ماضيا نعد الرجوع إليه من باب المحال.

وواصلت صمتي مطرقا، فاستمرت:

- إسمع أنا أقول كلاما جادا. كان يمكن أن أؤجل الحديث إلى عام أو أكثر لو كان الوضع العام يجري في ظروف طبيعية.وبإمكاني ألا أغضب من محاولاتك مع أختي نوليا مادامت تخرج مع الجميع لايمكن أن نبقى في مثل هذا الجو الموبوء.عندنا رصيد في بريطانيا كل أموال أمي وزوجها هناك، أما المقصف فلن نبيعه سيظل باسم أختي يديره لها بشير_الشاب الذي رأيته فتخيلت أنه يهددك وهو ابن عم أبي، اتفقنا معه أن ينتقل من الغربية ليسكن في منزلنا كي لايدخله أي غريب.

- تعنين أنّ الحرب أصبحت حقيقة قبل وقوعها.

تطلعت إليّ بعينين حنونين ثمّ أردفت:

- أنت تعرف سلوكي تعرفني من أنا الظروف التي جعلتك

تتشرد باختيارك دفعتني باتجاه آخر، لنتس كلّ ذلك سأدبر لك جواز سفر ثمّ نرحل جميعنا عبر الميناء إلى قبرص ونتوجه من هناك إلى لندن.

فاجأني عرضها.طلبها صدمني حقا.أريد أن أقول شيئا فلاأقدر عليه.نريمان تواصل حديثها.كنت شارد الذهن.الكثيرون من أمثالي زنادقة ومتدينون تزوجوا أوروبيات. ..صدمة جديدة..أريد أن أقنع نفسي بأية حجة.. .لو منحت جسدها لكلّ عابر من دون أجر، ملايين المرات. . . خلال لحظات أقنعت نفسي، ونقضت حججي. أمي الدجاجة التي لاتعرف كلمة العيب ولاتحرك ساكنا تأتي أمامي فتحضر لي الطعام. تغسل رجلي. ترتب ملابسي. تحدثني عن الشرف ثم تغادر الغرفة. نريمان تواصل حديثها وقد أخذت رقبتي بين ذراعيها:

- هل أدركت الآن لماذا امتنعت عنك نوليا؟

الحلال يسعى إلي عبر جسر الحرام. فهمت اللعبة متأخرا.ليس اختصاصها بي شفقة وعطفا وتعاطفا. فكرة زواج. اقتران. بيت مسؤولية. أطفال.أنا صاحب قرنين كبيرين مثل وعل يعيش في الغابات:

- أجل كنت غبيا.

- لو أنها منحتك نفسها لحرمتُ عليك إلى الابد.

ربما فكرت أنها تكرهني أو تحتقرني.ذهبت مع زبائن وامتنعت عني.كانت تدرك تماما أنّ نريمان تحبني وتفكر بي، وكأني أهرب من اللحظة الراهنة:

- منذ متى راودتك الفكرة.

"ضغطت على يدي كأنها تستعين بي" منذ الأسبوع الأول

قرأت فيك طيبة متناهية. أنت مكشوف كل الذين زاروا المقصف من العراقيين كانوا مبهمين كأن أحدهم يخشى الآخر لكنك كنت واضحا من أول يوم بل من أول وهلة فتردد في ذهني أمر ما ففاتحت نوليا وحذرتها قلت لها مادام هناك بعض الأمل ولو بنسبة خمسة بالمائة فأنا سوف أكون محرمة عليك إلى الأبد!

- والدتك تعرف؟

- قلت لها إني مهتمة بهذا الشاب وأود أن أدعوه إلى بيتنا فلم تمانع.

لابأس أن أكون مغفلا ولست بغبي. ماذا أتوقع.. كنت في سجن كبير.. لاصحف.. لامجلات..لامحطات حرة..أعشى يفاجيء عينيه مكان رشيق الألوان، أبي متأكد تماما من أني أعود بعد أسبوعين أو إن نقودي ستسرق مني الأسبوع الأول لكن مافي جيبي لم يُسَرق بل عرضت علي بيروت الهرب وأغرتني بالمال:

- لاشك أني مغفل وأعمى حين لم أشعر بما يدور حولي!

- لا إنك طفل كبير لك روح طفل وهذا السبب هو الذي جعلني أتعلق بك!

هل أسيء الظن بها.لِمَ أنا؟ طلاب البعثات موظفو السفارات لاأحد في حاجة إليها مثلي ربما هناك من العراقيين أمثالي يتجاهلون الموت فيختارون..لكني عاجز الآن عن تحديد أين أكون فألوذ بالبعيد الآتي إليَّ من البصرة:

- تعرفين آخر رسالة وصلت إليَّ من أهلي يسألونني فيها الرجوع!

- ثمة حرب هناك أيضا!

نهضت والتقطت حقيبتها وهي تقول:

يمكننا أن نعيش بسلام في أي بلد ولاداعي للمغامرة!

- ستعرفين جوابي في الوقت المناسب.

مازال هناك أمل لم يختف من عينيها:

- فكّر بالأمر جيدا، وانتبه كي لايسرقك الوقت.

لعلني أحبها ولعلني أكابر، ربما أمثل طفولتها البريئة المفقودة، في الوقت نفسه مازال عنادي حادا، وترددي يقوى، ويخفت. من يوصل الخبر لأبي وكيف تعرف أمي. بيروت تشتعل. كردستان تحارب..ونهر خوز مشغولة بصنع الحلوى والتمر..كلما اشتد رفضي ازدادت قناعتي.

كنت أهرب من تلك اللحظات فآخذها بين ذراعي لأنسى الجوّ المشحون.

الجمعة 13/ 4/ 1976

استفقت على صوت انفجار صاخب..

عرفت من المذياع أنّها سيارة ملغومة.لايهمّ المكان فأعاصير الموت سوف تلفّ كلّ الزوايا، ويذيب جحيمها الوقت بطوله.غدا كما تقول نريمان يأتي الموت بأشكال غريبة:سيارات مفخخة...صواريخ موجّهة...قذائف مدفعيّة... مسدسات مقنعة أوينزوي بكاتمات صوت.يأتي صامتا ومدويا يزهق الأرواح خلسة وعلنا..اختفت صورة لبنان الناعمة الأليفة وتلاشت كسراب غابات الكرز والليمون والتفاح وخضرة التلال وشجر الأرز. أصبحت في لحظات ماضيا مثل الخرافات التي تسكن داخل أغوار سحيقة من أعماقنا..خوفي يبلغ الذروة على الرغم من أنّ الوضع الشاذ والفوضى تصبّ لمصلحتي.لاأحد يلتفت لجواز سفري.. .إقامتي.. كلّهم مشغولون بالموت يغنون له أمّا أنا فليس أمامي لكي أخرج من هذا الجحيم إلّا أن أصبح قوادا.

هل أعود للقتل من جديد؟

فتح.. الجبهة الشعبية..الصاعقة.. العربية.. جبهة التحرير.. أم في خندق واحد مع الرفيقة لينا؟

نريمان الرقيقة قذفت أخطبوطا على الأسفلت فخمدت حركته بثوان عندذاك قالت لي أمي: ألا تذبح الأرنب؟في الوقت نفسه بالضبط.. الوقت ضحى ففي بيروت تذوب الأوقات بزمن واحد. الآن الساعة العاشرة سوف يأتي أبوك من العمل جائعا.أخي الأكبر

معلمي وأستاذي مارس الذبح وهو ابن ست سنوات. على يده مازالت ندبة من مخلب أرنب. . وأخي الأصغر ذبح أرنبا ببرودة أعصاب وهو في الثانية عشرة من عمره. . في الوقت الذي رأيت فيه الأخطبوط يهمد حملت سكيني واندفعت. . تطلع في عينيَّ. . تطلع طويلا. ثمة صرخة. زعيق ينطلق من قطرة الدم ويدفع بي إلى الوراء، فأرتجف مذعورا. . لا أرغب في الذهاب إلى الحانة، فأتذكر مع قتام بيروت وقسوتها المفرطة أني أقدر على الصحو في جو مفعم بالضباب متلفع بجلباب الخوف والموت على بعد خطوات مني. قد تكون أنت أو أي شخص غيرك.عملية حظ. سحبة يانصيب.. كان الرصاص ينطلق من جبل زوزك ويغطي قرص الشمس .لست متأكدا من أنه نال أحدا ما، ولعله أصاب الهدف بدقة.قد يكون رصاصي طائشا كأفكاري فبالأمس فقط راودني خيال مفعم بسوء الظن.نوليا استباحت كل الرجال ولم تستبحني.كم أنا وقح حقا؟كان الأجدر بي أن أنتبه إلى مشاعر نريمان الأخت الكبرى.المستقبل أمامي نتن: قواد أم قاتل؟لكن نريمان لن تخرج مع أيّ زبون. . يمكن أن تخلص لي.ربما أقتنع أن يكون لي قرن ليوم أو ثلاثة. . .حجتها غير بعيدة عن الصواب.بدلا من بيروت قد أكون في أوروبا الآن مقترنا بفرنسية أو روسية كيف أعرف عدد الذين ضاجعوا امرأتي قبلي؟هذا اليوم راودتني رغبة في الخروج. . أي شيء أعمله سوى الخروج إلى أقرب كشك، فتعبث عيناي بحثا عن خبر مفرح. أمامي يوم ممل طويل، ولدي رغبة بعد لقائي الأخير بنريمان ألا أذهب إلى المقصف.لاأرغب في الشرب. كرهته. قرفت من رائحة العرق التي حجبت عني أمرا في غاية الوضوح. أنا الآن صاح بينما راح لبنان يوغل في الشرب..في مثل هذه الأجواء مجنون من يبحث عن عمل.في الطريق وسط غابات الحور والجوز مباشرة ونحن نهم بالصعود، انفجر لغم فسقط جندي على بعد

بضعة أمتار مني.اصطبغت بدلته بلون أحمر قان.لغم من صنع محلي، وبعد شهر من الحادث كتب إليّ الجندي ذو الساقين المفقودتين: أشكرك لأنك دفنت ساقيَّ. أنا أدعو لك كل صلاة، وفي اليوم نفسه وأنا عائد إلى المنزل قابلت لينا. بدت ببدلة عسكرية خاكية اللون وقبعة على رأسها.قلت أن جميع أوقات العالم ولقاءاته تنصهر في بيروت.. سألتها مباشرة من دون مقدمات:

- هل تقبلين الزواج مني؟

قالت، وهي تقبض على ذراعي:

- هيا بنا إلى أقرب مأذون.

فصحوت لأجدني أضم الجريدة إلى صدري، وعلى الرغم من أنني قررت اليوم أن أعتكف في الغرفة إلا أن الحلم استفزني، وداعب خيالي خاطر في أن أذهب إلى مكتب صوت الشغيلة.حين توغلت قليلا في عمق المحلة أذهلتني حالة الشارع.إستنفار. ميليشيات.. حواجز منظمات... مسلحون.آمن لبنان بالحرب ولو كنت سكران لما فهمته. قد أكون الصاحي الوحيد:

- إلى أين؟

- لن أذهب بعيدا زيارة للأصدقاء؟

- أنت من العراق رفيق؟

- نعم.

- مرحبا بك!

- لو سمحت بطاقة تعريف؟

العراق مرحبا بك !

التحقيق نفسه. حاجز آخر، مسلحون... العراق.. مرحبا

بك. . مقر حزب الشغيلة غص بالمسلحين. كانت الرفيقة لينا ترتدي بدلة عسكرية ومسدس يتدلى من حزامها العريض. ابتسامة واسعة :

– هل جئت تتطوع؟

– ليس الآن!

وهي تعبث بمنفضة السجائر:

– علام جئت إذاً؟

–أقول لك بصراحة إني رأيتك قبل ساعتين في حلم!

رافقتني إلى غرفة المطبعة الفارغة التي لفت نظري بابها المغلق أول يوم اجتزت فيه الدهليز فإذا هي صالة كبيرة تغص بأثاث قديم:

– هنا يمكن أن تبيت مع الرفاق إذا ضاق بك الحال. "التفتت إلى قصة المنام" : ماذا بعد؟

– لقد عرضت عليك الزواج!

– أهذا كل شيء؟

– الأدهى من ذلك أنك وافقت وأنت تعرفين أنني لاأملك أي منزل وليس معي مايكفي من النقود!

– أنظر كيف بدأت تفهم معنى الصراع الطبقي! " ثم نفثت الدخان وأضافت" : تعرف أنك مجنون!

– هي العبارة ذاتها قلتها عنك بعدما غادرت المطبعة وعرفت من السيد فاروق الأشقر أنك تركت الدراسة في الجامعة ولم تبالي بأي شيء!

وجلجلت القاعة ضحكة صاخبة منها:

– من المجنون أنا أم شخص يعبر الحواجز ويمشي كل تلك

المسافة في ظروف استثنائية ليحكي لامراة لاتعترف بتأويل الاحلام عن حلم!

ربما أكون أنا أو أنت من يضمن نفسه وقد يكون لبنان كله مجنونا وأنا العاقل الوحيد هذه الأيام:

- هذا الزمن هو زمن الجنون!

السبت 14/ 4/ 1976

العاشرة صباحا . .

تلك الساعة أتذكر لقاء ساحة " أم البروم".

وأنت جالس في غرفتك تخشى أن تخرج إلى الشارع حيث الشظايا المتناثرة من علب الموت والسيارات الملغومة. . العابرون يشيرون إليك: مات وهو يمر من هنا. أدَع العالم يأتي إليّ من بعيد أتركه مثل سمكة مشدودة إلى خيط. لا أرومه يفلت من يدي، وإذا بطرقات على الباب. من تكون نريمان أم لينا؟حان وقت الهرب أم توزيع الصحف؟ لا أتجاهل أيا منهما، أسأل نفسي مقاتل أم زوج غير مخدوع، فأغادر والوقت زبيع إلى ساحة أم البروم عند عرافة عجرية في الثلاثين من عمرها ذات عينين ثاقبتين. رمت الحصوات الصغيرة على الأرض فكان من تناثرها شكل أقرب إلى الدائرة. تطلعت لحظة في الحصى ثم في عيني وبدأت الكلام:

وراءك سفر طويل!

ابن جارنا سمع نبؤة من عرافة عن سفر طويل مزعوم ينتظره فحمل حقيبته وذهب إلى الكويت ثلاثة أيام كي يحقق نبؤة العجرية لكنه قتل في معركة حرير. لم يبق أمامي سوى ثلاثة أيام أقضيها في البصرة ثم التحق بالخدمة الإلزامية وها أنا أمام قارئة الطالع أروم كشف أسرار الزمن:

والعمر؟

حام إصبعها حول حصوات متواصلة تكاد تكون خطا واحدا:

ستعيش إلى ماشاء الله!

كم؟ خمسين ؟أقل؟ أكثر؟

العلم عند الله لكن خط العمر طويل!

إذاً لن أقتل في كردستان. سوف ألتحق في الخدمة العسكرية وأسافر، وأعيش طويلا. أخبار سارة:

والمال؟

لن تجوع وتعرى!

والهوى؟

يواتيك مرة في الدهر!

لم أسافر إلى الكويت مثلما فعل ابن الجيران غير أن النبوءة تحققت بعد تسريحي من الجيش. سافرت فجاءت إليَّ النبؤة هذه المرة بدلا من أن أسعى إليها. قارئات الطالع البدويات. البصارات. لاتعيقهن بوادر الحرب وحواجز الطريق بل يكثرن مع القذائف والشظايا مثل الأحزاب. يدخلن البيوت، فتشيع مع قدومهن لقاء بعض القروش راحة في النفوس. كانت في الخمسين من عمرها. ازاحتني عن الباب متسائلة:

- من أين أنت ياشاطر!

- من العراق.

- الله يصبر قلب أمك!

- إسمعي النقود عندي قليلة فلا تظني أني غني!

- لاتهتم للأمر ربع ليرة لن تضرك!

الحصوات المتناثرة تستلب عيني تناثرت هنا وهناك فوق جريدة غطت المنضدة، وهي تحثني:

- اسأل ياولدي عن أي شيء يمر بخاطرك!

- الحرب؟ هل تندلع؟

- الحرب ماوقفت ياولدي منذ عهد قابيل وهابيل؟

- والعمر؟

- العمر طويل إن شاء الله!

- هل تعرفين كم من السنين!

- بيد الله لكنك سوف تعيش إلى ماشاء الله!

هكذا نجوت من حرب كردستان. وقفت على جبل حرير وزوزك وحذرني جنود من أن أتحاشى التدخين في الظلام وقت الحراسة فلا أكون عرضة للقناص. اتفق الغجر والبدو على أن حياتي طويلة:

- الصحة ياحاجة؟

- عال ماشاء الله.

- والسفر؟

- كلنا في سفر ياولدي

- ماذا ترين بشأن الهوى!

تتأمل طويلا وتقف عند حصاة التمت على أخرى مثل الجنين:

- إنسان قلبه عليك!

- وماذا عن الزواج والأسرة؟

- قلت هناك شخص قلبه عليك.

- ماذا بعد؟

- هذا كل شيء.

وجمعت الحصاة، وغادرت غابت مثل حلم جميل يمر بك وأنت نائم في قفص مع وحوش ضارية وكانت ساحة أم البروم تغيب معها وتتركني وحدي وفي إحساسي تسطع فكرة خبيثة وتوسوس لي أن نريمان أرسلت تلك العرافة لتحدثني بطريق الغيب عن حبها لي!

الأحد... الاثنين.. الثلاثاء

... / .. /

الأسبوع كلّه.. كل الأوقات

بدأ النهار بنغمة حادة، فهاهي بيروت تكشر عن أنيابها..

يوم مبهم الملامح...

يمكن أن يكون أيّ يوم في التاريخ...

تلك الساعة وقع الزلزال العظيم. وتصاعدت الأحداث إلى مدى بعيد من المحال تصديقه. أصبح الموت يحيط ببيروت.. تكاثرت المنظمات وانشطرت الأحزاب كالبكتريا. في بضعة أيام بل ساعات أو دقائق أصبح الناس كثيران متوحشةٍ وكأن تلك الأرض الطيبة لم تتفجر منها أعذب العيون ولا أجمل الأغاني.. كان الصنوبر والكرز والعنب والتفاح وهماً والأرز تحول إلى شوك.. إذ أذكر خوف الناس فإنّ خوفي يخفّ قليلا. إذاعة فلسطين... صوت لبنان... الإذاعة الوطنيّة... محطة الكتائب تلقي بالوم على الغرباء الذين خربوا لبنان. لبنان إسفنجة الحضارة العراقي فيها

والمصري والتونسي والياباني.. جميع أهل الأرض.. مصحة العرب. مشفى نأوي إليه فننقل العدوى إلى أهله... راديو.... محطات التلفاز.. أحزاب صغيرة لبنانية ومنظمات فلسطينية تستقيلك لايهمها من تكون سوى أنك تحمل السلاح وتشارك في الحراسة والدوريات. حوادث تسطع في ذاكرة اللبنانيين مثل جمر أزاحت الرماد عنه لفحة ريح. الشرقية لاتنسى محاولة اغتيال بيار الجميل. الغربية تلهج بمصرع أبرياء.. فيالثأر سبعة وعشرين راكبا في حافلة قتلهم حزب الكتائب عند عين الرمانة. القتل هو آخر الأخبار، والموت محور الكلام. في منطقتنا قال لي بائع الفلافل:

- سوف نقتحم الشرقية هؤلاء المارونيون ليسوا عربا عملاء إسرائيل من بقايا الحروب الصليبية جاؤوا إلى لبنان غزاة واستقروا هنا في بلدنا!

وعلق لبناني آخر:

- جنبلاط قائدنا الشرقية ساقطة من الناحية العسكرية ولانحتاج إلا إلى ساعات.

- هناك نحو الشرق باتجاه المرتفعات تستطيع القوى الوطنية أن تحتل عالية فتشرف على بيروت من فوق.

الكل مفكرون، والكل قادة عسكريون يضعون الخطط.. ويباشرون مهمات القتال.. لبنان أصبحت تأكل نفسها.. تعض جسدها وتقطع أوصالها..

عند الظهيرة شعرت بالجوع. وضعت ماء بالوعاء أسلق بيضتين ثمّ اكتشفت فراغ القنينة. اليوم عليّ أن أملأها وسط هذا الخراب المتناثر حولي، ولم يبق من راتب الشهر سوى أقل من مائة ليرة.

الجوع يقرصني.. والضجة تنشب مخلبها.. داخل الغرفة تنخر المحطات وفي الخارج انفجارات متتابعة. أيهما أتجاهل الجوع أم الرعب. ارتديت ملابسي وكنت أطلّ على الخارج. كلّ مارأيته يهون أمام الموت... الهلع بعيون الناس... القذائف تخترق السماء وتستقر مسعورة على الشوارع والابنية... الطيران... الرصاص هنا وهناك...

أين أذهب؟

نوليا نريمان.. لينا إلهات الجنس والحكمة والحرب. الحروف التي طوقتني في أحد الأحلام هي ذاتها عادت بالحرب.. الحاء وحده أصبح حلقة وسطا فاين نريمان ياترى الآن:

- أنظري هذه آخر رسالة من أبي!

- ماذا عن الشمال والأكراد؟

- كردستان تشتعل الآن؟

- أتهرب من نار بيروت إلى نار الجبال!

- تعال معي!

- لينا... نريمان.. نار.. البحر..

الموت.. القتل.. الجريمة... فلسطين.. بيروت الغربية.. الشرقية.. مصائد الموت. الحواجز الطيارة.. ما الذي جعلني أغادر العراق.. شيوعي.. قومي.. من الإخوان.. ربما أكون كل هؤلاء مادامت كردستان في خاطري فخدمة العلم يمكن أن تتكرر كل سنة.. واجب الإحتياط عمل مقدس.. أنسخ حياة العسكرية في وحدتي المرابطة على جبل زوزك كل عام بدلا من أن أهمل نفسي فأصبح ذا كرش كما يقول الضابط.. وهاهي بيروت تريدني

أن أستنسخها. أقرأ في وجه لينا كل قسمات اللبنانين وأسمع أصواتهم. صوت واحد: احمل بندقية واتبعني... مقاتل في الجبهة الشعبية.. فدائي مع فتح.. رفيق أساند الحزب الإشتراكي، في الخندق نفسه مع صوت الشغيلة. الحرب في داخلي تتناسخ والسؤال الوحيد يلح عليّ بقسوة. يقرصني كمخلب جارح.

أين أذهب؟

بيروت سألتني من أول يوم أنت سياسي؟.. شيوعي.. قومي.. مدينتي البصرة ملايين النخل تسبح على بحيرة بترول لكن مافائدة أن تكون جيوبك معبأة بالنقود ولاتجد شيئا؟ مادمت غير سياسي فهل أعود إلى السجن من جديد وكردستان برميل بارود يندلع في أية لحظة. بركان يخفت ببيان مصالحة من بغداد وينفجر في أي حين.. قد تنتهي الحرب هنا ذات يوم لكن هناك على الجبل سأظل طوال عمري أطلق الرصاص وأعبر حقول الألغام!

التأمل لحظة يمنحني صراع قرون وتناقض أجيال. ماقيمة حياة التشرد؟ثروة.. مال.. واستقرار. كلنا نخطيء. أنا أخطأت حين ذهبت إلى المبغى. نريمان تحدثت بقلب مفتوح.. وثقت بي.. صادقتني.. دعتني إلى بيتها.. عرفتني بأمها أي حاجز رفعته بيني وبينها وتقسم أنها لم تسلم جسدها لأحد منذ عرفتني وفي مثل هذه الظروف المثقلة بالأخطار سلمتها مفتاح شقتي لكني أظل دائما أبحث عن قريتي وأنظر بين نخيلها إلى النساء على استحياء. وأنا صغير في الصف الخامس الابتدائي خربت القنطرة التي كانت الجسر الوحيد الذي نعبره إلى المدرسة، فخلعت الفتيات أحذيتهن ورفعن تنوراتهن الزرقاء الطويلة إلى الركب. كنت منغمسا بين السواقي ومختفيا وسط الحشائش أنعم النظر إلى سيقانهن

المصقولة، وفي المدينة بالكاد أختلس نظرة إلى وجه امرأة فكم رجلا ضاجع نريمان؟ يمكن لها أن تتوب وتخلص لي، فأتخلص من عقدة القرون بمرور الوقت أم أذهب إلى هناك مع التي تريدني قاتلا أطلق النار على من لاأعرف.. إن لم أمت في كردستان ففي بيروت بانفجار تحكي عنه صحافة اليوم وتتناقله وكالات الأنباء وتلوكه شفاه مذيعات التلفزيون الجميلات: عشرون قتيلا حصيلة أنفجار في بيروت الغربية وعشرات الجرحى، ولعلني أعثر على ساقين دفنتهما ذات يوم عند السفح فلا أجدهما فأكتب إلى صاحبهما في اليوم التالي ردا.. بضعة أسطر أتحفظ في انتقاء كلماتها حتى لا أثير ضغينة الرقيب:

عزيزي...

إطمئن.. دفنت قدميك أسفل الجبل من الجهة القريبة للعين إذ كان من المحال أن أتجاوز بعيدا عبر الغابة حيث قبر الولي فأدفنهما هناك. انت تعرف السبب. ادع لنا في صلاتك.

فهل أوشكت أن أفقد ساقيَّ فلا أعثر عليهما وسط الفوضى والدمار؟

الزمن كفيل بمعالجة كل شيء.

فأين أذهب.

قاتل كما في كردستان أم قواد؟

أكرر السؤال أكثر من مرّة، فتراودني جرأة غير معهودة على أن أتجاهل الخطر وأخرج إلى الشارع!

كانت قدماي تقودانني إلى حيث لا أدري.. أمنية قد تكون

أقرب إلى الممكن أو المحال، وكلما ازداد الرعب من حولي وأحدق بي مخلب الموت ازدادت خطواتي...

ثمّ التفت إلى نفسي.

كان القصف يزداد في حين كنت أهرول في الشارع ولما أقرر بعد هل آوي إلى مقر الرفاق التحق بإلهة الحرب العرجاء أم أقصد المقصف الملكي!

بيروت - شتورة - دمشق 1986

[redacted]

[redacted]